

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

مِنْ لَيْلِ الْعُبُودِيَّةِ
إِلَى فَجْرِ الْاِسْتِخْلَافِ



رَدَّادُ السَّلَامِي

سُورَةُ الْإِسْرَاءِ

مِنْ لَيْلِ الْعُبُودِيَّةِ إِلَى فَجْرِ الْإِسْتِخْلَافِ

رِحْلَةً فِي بِنَاءِ الْإِنْسَانِ، وَسُنَنِ الْأُمَمِ، وَهَدَايَةِ الْقُرْآنِ

رداد السلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة منهجية

حين يصنع الوحي إنساناً أهلاً لحمل الأمانة

سورة الإسراء ليست حديثاً عن رحلة وقعت في صدر ليلة ثم انقضت؛ إنها رحلة تتجدد في كل نفس تريد أن تخرج من ضيق الأرض إلى سعة العبودية، ومن فوضى الهوى إلى نظام الوحي، ومن عبادة الأشياء إلى معرفة الله. تبدأ السورة بحركة مباركة في المكان، ثم تتحول سريعاً إلى حركة عميقة في الضمير؛ كأن الإسراء الخارجي لم يكن إلا مدخلاً إلى إسراءٍ آخر: أن يسري الوحي بالإنسان من ظلمات نفسه إلى أنوار الهداية.

وإنما افتتحت السورة بالليل؛ لأن التحولات العظيمة لا تبدأ دائماً في وضوح النهار، ولا تأتي حين تكون الطرق كلها ظاهرة، بل قد تبدأ في أشد اللحظات غموضاً ووحشة. الليل في منطق الإنسان انقطاع، ولكنه في تدبير الله ممر؛ وفي عين المبتلى ظلمة، ولكنه في ميزان الوحي رحمٌ يتخلق فيه الفجر. وكم من عبدٍ ظن أن الله أوقفه في الليل، ولم يعلم أن الله إنما كان يُسري به!

وقد جاءت هذه الرحلة بعد عامٍ امتلأ قلب النبي ﷺ فيه بالألم؛ ماتت خديجة، وغاب أبو طالب، وضافت مكة بالدعوة، وردَّ أهل الطائف النور بالحجارة. وفي اللحظة التي بدا فيها أن الأرض أغلقت أبوابها، فتح الله لعبده أبواب آياته. وكأن في افتتاح السورة مواساةً خالدة لكل صاحب رسالة: إذا ضاقت بك جغرافيا البشر، فلا تظن أن أقدار الله قد ضاقت؛ فقد تُغلق في وجهك

قرية، ويُفتح لك من عالم الملكوت ما يعيد تعريف المكان والزمان والقوة والنصر.

وليس المقصود من «العروج الروحي» هنا اختزال المعجزة الحقيقية في رمز نفسي؛ فالإسراء آية واقعة أكرم الله بها نبيه ﷺ، كما أن المعراج ثابت في السنة الصحيحة. وإنما نقرأ في الواقعة، مع إثبات حقيقتها، هدايتها الممتدة: كيف يرتفع القلب بالعبودية؟ وكيف يتحول الألم إلى اصطفاء، والليل إلى طريق، والابتلاء إلى إعداد؟

تتحرك سورة الإسراء في ثلاثة مسارات كبرى:

الأول: رحلة العروج الروحي؛ من التسبيح والعبودية إلى الكتاب والهداية، ومن المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ومن محنة الفرد إلى تاريخ الأمة.

والثاني: مسار الابتلاء والقيم؛ حيث تبني السورة إنسان الاستخلاف: باراً بوالديه، رحيماً بالضعفاء، منضبطاً في ماله وشهوته ولسانه وعلمه، متواضعاً لا يمشي في الأرض مرحاً، ولا يقتل، ولا يزني، ولا يظلم، ولا يتبع ما ليس له به علم.

والثالث: خاتمة النور واليقين؛ حيث يظهر القرآن شفاءً ورحمة، وتتكشف هشاشة الإنسان حين ينفصل عن ربه، وتسقط دعاوى المكذبين أمام سلطان الوحي، وتنتهي السورة كما بدأت: بتنزيه الله وتعظيمه، وإعلان أن الكبرياء كله له.

إنها سورة تسأل الإنسان المعاصر: ماذا صنعت بك السرعة إن لم توصلك إلى الله؟ وماذا منحتك التقنية إن سلبتك البصيرة؟ وما قيمة أن تعبر القارات في ساعات، وأنت عاجز عن عبور المسافة بين معرفتك بالحق واستجابتك له؟ لقد تعلم الإنسان كيف يسري في الأرض، لكنه لم يتعلم دائماً كيف يعرج بقلبه فوق شهوته، وكيف يرتفع بأخلاقه فوق أنانيته، وكيف ينتقل من معرفة المعلومة إلى خشية العليم.

وسوف نمضي مع آيات السورة جميعاً، لا لنحملها ما لا تحتمل، ولا لنستبدل بالتفسير تأملاً منفلاً، بل ننطلق من ظاهر الآية ولغتها وسياقها ونظمها، ثم ننظر في آثارها النفسية والأخلاقية والحضارية. فالتدبر الصحيح لا يزاحم التفسير، بل ينبت في تربته؛ ولا يدّعي كشف غيبٍ مستور، بل يستجيب لنورٍ منشور.

المحور الأول

رَحْلَةُ الْعُرُوجِ الرُّوحِيِّ

من ليل الانكسار إلى أفق العبودية

قال الله تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (الإسراء: ١).

تبدأ السورة بكلمة تطهّر التصور قبل أن تفتح له باب المشهد: (سُبْحَانَ). كأن العقل، قبل أن يستقبل الخبر العظيم، يحتاج إلى أن يغتسل من مقاييسه الضيقة؛ فلا يقيس قدرة الله بعجز الإنسان، ولا يزن الخارق بميزان المألوف. التسبيح تحريرٌ للعقل من سجن العادة، وإعلانٌ أن الله لا تحدّه قوانين خلقها، ولا يعجزه بُعد، ولا يستغلق عليه طريق.

ولم تقل الآية: «سبحان الذي أسرى بمحمد»، مع أن المقام مقام تكريم، بل قالت: (بِعَبْدِهِ)؛ لأن أعلى ما يرتفع إليه الإنسان هو أن تتحقق عبوديته لله. يظن الإنسان المعاصر أن كرامته في أن يستقل استقلالاً مطلقاً، وأن يكون سيد نفسه، وأن يتحرر من كل مرجعية؛ ثم يكتشف بعد طول التيه أنه حين رفض العبودية لله صار عبداً للسوق، وللصورة، وللرأي العام، وللشهوة، وللخوف من فقدان المكانة.

الإنسان لا يخرج من العبودية؛ إنما يختار سيده. فإن لم يكن عبداً لله، توَزَّعتْ أربابٌ صغيرة لا ترحمه.

وهنا سرٌّ نفسي بالغ: لم تكن الرحلة جزاءً للنفوذ الأرضي، بل تكريمًا للعبودية. لم يُسرَ بالنبي ﷺ لأنه امتلاك المال أو السلطان، وإنما لأنه بلغ من صدق الافتقار إلى الله ما جعله أهلاً لأن يرى من الآيات الكبرى. فالارتقاء لا يبدأ من شعور الإنسان باكتفائه، بل من صدق عبوديته. وكلما ازداد العبد معرفةً بالله، ازداد إدراكاً لفقره؛ وكلما ازداد إدراكاً لفقره، أغناه الله بنور القرب.

(أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا)؛ والسرى لا يكون إلا ليلاً، ومع ذلك ذكر الليل. وفي هذا الذكر إحياء بأن الليل نفسه جزء من الرسالة. لم يُمَحَّ الظلام حتى تبدأ الرحلة، بل بدأت الرحلة في داخله. وهذه من أعمق حقائق التربية الإيمانية: ليس شرطاً أن تنتهي أوجاعك كي تبدأ السير إلى الله؛ قد يكون وجعك هو الطريق. وليس شرطاً أن ترى المشهد كله كي تخطو؛ يكفي أن تعلم من الذي يسري بك.

كان الليل يحيط بالنبي ﷺ، لكن الله كان معه؛ والليل مع الله ليس ضياعاً، كما أن النهار من دون الله ليس هداية.

وفي قوله: (أَسْرَى بِعَبْدِهِ) لطفٌ عجيب؛ فالعبد لم يقطع الطريق بقوته، وإنما أسري به. هناك مراحل في الحياة لا تعبرها بحولك، بل تحملك فيها العناية. تبذل ما تستطيع، ثم تنظر خلفك فتدرك أن قوتك لم تكن تكفي لكل ما اجتزت، وأن يدًا خفية من الرحمة كانت تسند قلبك كلما أوشك أن يسقط.

ومن المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى تمتد خريطة الرسالة. فالمسجدان ليسا حجارةً متباعدة، بل حلقتان في سلسلة التوحيد؛ مكة مبدأ الامتداد، والقدس ذاكرة النبوات وموضع البركة. وكأن الرحلة تعلن أن رسالة محمد

ﷺ لا تبدأ تاريخًا مقطوعًا عما قبله، بل تجمع موارد النبوة وتردها إلى أصلها الواحد.

ولذلك لا يكون المسجد الأقصى في وعي المسلم شأنًا جغرافيًا بعيدًا؛ إنه جزء من عقيدته، وذاكرته، وامتداده الروحي. وحين يضعف حضور الأقصى في الضمير، لا تضيق أرض فحسب، بل ينكمش معنى الأمة في النفس، ويتحول الدين من أمانة حضارية جامعة إلى تدين فردي محصور.

(الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ)؛ فالبركة لا تقف عند جدرانه، بل تفيض حوله. وهذه طبيعة النور الحق: لا ينحبس في موضعه، بل يمنح ما حوله حياةً ومعنى. والإنسان المبارك كذلك؛ لا تكون صلاحاته حبيسة ذاته، بل يشعر الناس بقربه بشيء من الطمأنينة والعدل والرحمة. أما التدين الذي يزداد صاحبه به قسوةً وعجبًا وإيذاءً، فهو شكلٌ قد حمل اسم النور ولم يحمل أثره.

ثم تكشف الآية غاية الرحلة: (لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا). لم تكن الرحلة لمجرد الانتقال، بل من أجل الرؤية. فما قيمة أن تقطع المسافات إذا بقي إدراكك في موضعه؟ وكم يسافر إنسان العصر، ويشاهد المدن والبحار والجبال، ثم يعود كما ذهب؛ لأن عينه رأت، ولكن قلبه لم يبصر!

الرؤية القرآنية ليست تكديس مشاهد، بل انكشاف معنى. قد يرى اثنان المشهد نفسه؛ فيعود أحدهما بصورة، ويعود الآخر ببصيرة. ولهذا لم يقل: «ليرى»، بل قال: (لِنُرِيَهُ)؛ فمشاهدة الآيات منحة، والبصيرة رزق، والنور لا يُنتزع من الكون انتزاعًا، بل يهبه الله للقلب المستعد.

وُخْتُتِمَ الآية بقوله: (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ). سمع الله ما قيل للنبي ﷺ، ورأى ما فعل به، وعلم وجعه وإن أخفاه. وهذه الخاتمة تضمّد قلب كل

مظلوم: قد لا يسمع الناس حقيقة شكواك، وقد يرون آثار الألم ولا يرون عمقه، لكن السميع لا تضيع عنده أنة، والبصير لا يخفى عليه جرح.

إن الله لم يكن غائبًا عن ليل الطائف، وإنما كان يصنع من وراء الألم فجر الإسراء.

الدرة البلاغية

بدأت الآية بتنزيه الله: (سُبْحَانَ)، وخُتِمت بإحاطة علمه: (الَسْمِيعُ الْبَصِيرُ)؛ فبين القدرة المطلقة والعلم المحيط جرت الرحلة. وما دام الذي يدبّر حياتك قادرًا لا يعجز، سميعًا لا يغفل، بصيرًا لا يخفى عليه شيء، فلماذا يبتلعك اليأس؟

من رحلة الفرد إلى رسالة الأمة

قال الله تعالى: (وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا) ٢ ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (الإسراء: ٢-٣).

ما أسرع انتقال السورة من الإسراء بمحمد ﷺ إلى إيتاء موسى الكتاب! فالرؤية التي لا يعقبها منهج قد تتحول إلى ذكرى مدهشة، والمنهج الذي لا يتصل بالله قد يتحول إلى أحكام جافة. لذلك جمعت السورة بين الآية والكتاب: آية تفتح القلب على عظمة الله، وكتاب ينظم حركة الإنسان في الأرض.

إن الأمة لا تنهض بالمشاعر وحدها، ولا بالذكريات العظيمة وحدها، ولا بالأمجاد التي ترونها للأجيال؛ إنما تنهض حين يتحول نور العقيدة إلى

هدى يحكم السلوك والعمران والسياسة والأخلاق. قد تبكي أمة عند ذكر مقدساتها، ثم تعجز عن إقامة العدل في حياتها؛ لأنها امتلكت حرارة الانفعال ولم تمتلك صرامة المنهج.

(وَجَعَلْنَاهُ هُدًى)؛ فالكتاب لا يؤدي غايته حين يُزَيَّن الرفوف، ولا حين يتحول إلى هوية ثقافية، بل حين يهدي. والهداية فعل تغيير: تنتقل الإنسان من اعتقاد إلى اعتقاد، ومن خلق إلى خلق، ومن نظام إلى نظام. وكل قراءة لا يخرج منها القارئ أكثر عدلاً وبصيرةً وخشية، فقد لامست حروف الكتاب ولم تبلغ هدايته.

ثم تلخص الآية أصل الأزمة كلها: (أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا). فالانحراف يبدأ حين يسند القلب أمره إلى غير الله إسناد عبادةٍ وتوكل، وحين يمنح مخلوقاً سلطةً داخلية لا تليق إلا بالخالق. وقد يكون هذا الوكيل مألأً يتوهم صاحبه أنه يحميه من تقلبات الحياة، أو منصباً يتكئ عليه، أو جماعةً يذوب فيها، أو قوةً دوليةً تظن أمةً أنها تمنحها البقاء.

ولا يعني التوكل ترك الأسباب، بل تحرير القلب من تأليها.

المؤمن يستخدم السبب ولا يعبد، ويطرق الباب ولا يظن أن الباب يملك العطاء، ويستعين بالناس دون أن يسلم لهم أعماق رجائه وخوفه.

ثم يناديهم القرآن من وراء الأجيال: (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ). إنه يوقظ فيهم ذاكرة النجاة؛ فوجودكم نفسه ثمرة عناية قديمة. أنتم أبناء من حملهم الله حين أغرق الطوفان كل أسباب القوة الكاذبة. فلماذا تنسون المنعم بعد أن ورثتم النجاة؟

ويُختار نوح هنا بوصفٍ واحد: (إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا). لم يقل: نبيًا صابراً، مع عظمة صبره، بل ذكر الشكر؛ لأن أعظم ما يحفظ النعمة أن تُنسب إلى واهبها، وأسرع ما يحول النجاة إلى هلاك أن تتوهم الأمة أنها نجت بذكائها واستحقاقها.

الشكر ليس كلمة تقال بعد الطعام؛ إنه وعيٌ كامل بمصدر النعمة، واستعمالٌ لها في مرضاة المنعم. والأمة الشاكرة لا تجعل التمكين فرصةً للعلو، بل ميداناً للعدل. أما الأمة التي تنسب قوتها إلى ذاتها، فإن نعمتها تبدأ منذ تلك اللحظة في التحول إلى امتحان.

حين يتحول الاستخلاف إلى استعلاء

قال الله تعالى: (وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا) ○ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (الإسراء: ٤-٥).

ها هنا تنتقل السورة من النعمة إلى مسؤولية النعمة، ومن الكتاب بوصفه هدى إلى الإنسان حين يخون الهدى. ليست المشكلة في غياب النص دائماً؛ فقد يكون الكتاب حاضراً، لكن النفس تتخذ ستاراً لعلوها. وقد تحمل الأمة الوحي في ذاكرتها، ثم تتصرف في الأرض بعقلية الاستكبار.

تجمع الآية بين كلمتين تكشفان أصل السقوط الحضاري: **الإفساد والعلو**.

الإفساد هو الأثر الخارجي، والعلو هو المرض الداخلي. يبدأ الطغيان شعوراً في النفس بأنها أرفع من أن تخضع للحق، ثم يتحول هذا الشعور

إلى ظلم في الأرض. وما من فساد سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي إلا ويسبقه لونٌ من العلو: حاكم يرى نفسه فوق المساءلة، وغني يرى الفقير أقل إنسانية، وجماعة ترى الحق ملكًا خاصًا لها، وأمة ترى الشعوب الأخرى مادةً لمصالحها.

إن سورة الإسراء لا تفسر سقوط الأمم بضعف الأدوات وحده، بل بفساد الضمائر. فالحضارات لا تنهار حين تقل مواردها فقط؛ إنها تبدأ في الانهيار حين تستخدم وفرة مواردها في الظلم، وحين يتحول التمكين من أمانة إلى امتياز، ومن وظيفة أخلاقية إلى شهوة سيطرة.

(لَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا)؛ وجاء المصدر بعد الفعل ليضخم صورة العلو، ثم وُصف بالكبر، كأن الاستعلاء تمدد حتى ملأ الفضاء النفسي والاجتماعي. وهذه هي طبيعة الكبر: يبدأ خاطرًا صغيرًا، ثم يعيد ترتيب رؤية الإنسان لنفسه وللآخرين؛ فلا يعود يرى إنسانًا أمامه، بل أداة أو تابعًا أو عائقًا.

وعند بلوغ الفساد مداه، تتحرك السنن: (بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ). وليس في الآية أن هؤلاء كانوا بالضرورة أهل صلاح واصطفاء؛ فقد يكون الوصف من جهة خضوعهم لسلطان الله الكوني، وأنه سخرهم لإنفاذ قضائه. فالله قد يدفع ظالمًا بظالم، ويجعل طغيان أمة سببًا في تمكين خصمها منها.

وهذه حقيقة مرعبة في فقه التاريخ: قد تصنع الأمة عدوها بفسادها قبل أن يهزمها بسلاحه. حين تتآكل العدالة من الداخل، تصبح الحدود الخارجية آخر مواضع السقوط لا أوله. العدو يدخل الديار بعد أن يدخل الوهن الضمائر، وتُخرق الأسوار بعد أن تُخرق القيم.

(فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ)؛ صورة فيها حركة عنيفة متوغلة، لا تقف عند الأطراف بل تتخلل البيوت والمسالك. فالفساد الذي ظنه أهله شأنًا سياسيًا بعيدًا يصل أخيرًا إلى تفاصيل الحياة؛ إلى أمن البيوت، وطمأنينة الأطفال، وخبز الفقراء. وحين يصمت المجتمع طويلًا عن الظلم لأنه لم يصل إليه بعد، فإنه لا يدرك أن النار التي تُترك في طرف المدينة تتعلم الطريق إلى كل بيت.

(وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا)؛ لا تهديدًا معلقًا، بل سنة إذا اكتملت شروطها نزل أثرها. إن قوانين الله لا تحابي أمةً لنسبها، ولا جماعةً لشعارها، ولا قومًا لتاريخهم. من أخذ بأسباب العدل حملته سنن النهوض، ومن استكمل أسباب السقوط لم تنتقذه الأسماء المقدسة.

التداول ليس تزكيةً مطلقة

قال الله تعالى: (ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا) (الإسراء: ٦).

لم ينته التاريخ عند الهزيمة؛ لأن سنن الله لا تغلق باب المراجعة. ردّ الله لهم الجولة، ومنحهم أسباب القوة: المال، والبنين، وكثرة الأنصار. لكن استعادة القوة ليست شهادةً أبديةً بالصلاح؛ فقد تعود النعمة امتحانًا جديدًا، ويعود التمكين سؤالًا أخلاقيًا: ماذا ستفعلون هذه المرة؟

وهذه من أكثر الآيات تصحيحًا لوهم الإنسان السياسي؛ فكثيرون يظنون أن الانتصار دليل رضا مطلق، وأن كثرة المال والعدد برهان حق، وأن من غلب فقد زكّته السماء. لكن القرآن يعرض القوة بوصفها ابتلاءً لا صك

براءة. قد يُمهّل الله أمةً، ويرد لها سلطانها، ويفتح لها أبواب الثروة؛ لا لأن كل ما تفعله صحيح، بل ليمتحن استعمالها الجديد للنعم.

إن التاريخ يمنح بعض الأمم جولةً أخرى، لكنه لا يمنحها حصانةً من العاقبة.

والبناء النفسي للاستخلاف يبدأ من هنا: ألا تفسدك العودة بعد الانكسار. فكثيرون يتواضعون حين يضعفون، فإذا استعادوا القوة أعادوا إنتاج الظلم الذي شكوا منه. المظلوم لا يصبح عادلاً تلقائياً بمجرد أنه ذاق الظلم؛ قد يحمل داخله صورة ظالمه، وينتظر فقط أن تتبدل المواقع.

ولذلك فالسؤال الحقيقي ليس: هل انتصرت؟ بل: ماذا صنع الانتصار بأخلاقك؟ هل صرت أكثر شكرًا ورحمة، أم أكثر استعلاءً وانتقامًا؟

الخير الذي يعود إليك، والشر الذي يبدأ بك

قال الله تعالى: (إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا) (الإسراء: ٧).

هنا يضع القرآن المراة أمام الأمة: لا تبحثوا عن مصيركم خارج أفعالكم. (إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ)؛ فالإحسان لا يضيع في فراغ، بل يعود أول ما يعود إلى صاحبه، يبني روحه قبل أن يعمر واقعه، ويمنحه من سلام النفس ما لا تستطيع المكاسب المادية أن تمنحه.

(وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا)؛ أي فعلها عاقبة الإساءة، وجاء التعبير باللام على سبيل المقابلة والإيجاز، كأن الإساءة شيء يعود إلى موطنه الذي خرج منه.

فالشر قبل أن يجرح ضحيته يشوه فاعله؛ والكذبة تُظلم قلب الكاذب قبل أن تخدع السامع، والظلم يهدم إنسانية الظالم قبل أن يهدم بيت المظلوم.

وهذا قانون تربوي وحضاري معًا: الأمة حين تحسن في التعليم والقضاء وحفظ الكرامة لا تتفضل على مواطنيها، بل تبني أمنها ومستقبلها. وحين تظلمهم لا تضر أفرادًا معزولين، بل تحفر تحت بنيانها حفرةً ستسقط فيها.

(لَيْسُوْءُوا وَجُوْهَكُمْ)؛ لأن الوجه موضع ظهور الكرامة والسرور، فإذا نزل الذل بان أثره فيه. وما يبدأ خفيًا في الضمير يظهر يومًا على وجه الحضارة. قد تُحسن المجتمعات طلاء واجهاتها، وتصنع لنفسها خطابًا أخلاقيًا براقًا، لكن الفساد الداخلي لا يبقى مستورًا إلى الأبد؛ يأتي يوم تظهر فيه على الوجوه آثار ما أخفته القلوب والمؤسسات.

ثم يصل العقاب إلى المسجد؛ لأن المقدسات لا تحرسها الشعارات وحدها. إنما تحرسها أمةٌ تستقيم على مقتضى القداسة: توحيدًا، وعدلاً، ووحدةً، وإعدادًا، وأخلاقيًا. أما أن تُرفع للمقدسات الخطب، ثم تُهدم في الحياة قيم العدل والأمانة، فذلك انفصال بين الرمز ورسالة الرمز.

(وَلْيَتَّبِرُوا مَا عَلُوا تَتَّبِيرًا)؛ أي يهلكوا ويدمروا ما غلبوا عليه تدميرًا. والتكرار بين الفعل والمصدر يصوّر شدة الاستئصال. فالعلو الذي لم يُضبط بالتقوى يستدعي قوةً تهدم آثاره، وكأن التاريخ يرفض أن يترك للكبرياء بناءه سالمًا إلى الأبد.

الرحمة المفتوحة والتحذير الباقي

قال الله تعالى: (عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُذْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا) (الإسراء: ٨).

بعد كل هذا الفساد والعقاب، لا يُغلق الباب: (عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ). ما أعجب الرحمة الإلهية! إنها لا تنفي العدل، لكنها تسبق اليأس إلى القلب. فالله لا يريد للإنسان أن يحوّل ماضيه إلى سجن أبدي؛ ما دام حيًا فطريق الرجوع مفتوح، وما دامت الأمة قادرة على مراجعة نفسها فالإصلاح ممكن.

ولم يقل: «عسى الله»، بل قال: (رَبُّكُمْ)؛ ليوظ معنى التربية والرعاية. فالذي عاقبكم هو ربكم، لم يخرجكم بعقوبته من ملكه، ولم يقطع عنكم إمكان الإصلاح. وقد تكون الشدة نفسها لوئًا من الربوبية؛ تهدم في النفس وهما كان سيقودها إلى هلاك أعظم.

لكن الرحمة ليست إلغاءً للسنن: (وَإِنْ عُذْتُمْ عُدْنَا). إن عدتم إلى الفساد عدنا إلى العقوبة. لا يكفي أن تبكي الأمة فوق أنقاضها ثم تعيد إنتاج أسباب الخراب. التوبة الحضارية ليست خطابًا عاطفيًا، بل تغيير في البنية التي أنجبت الظلم: في تصور السلطة، وتوزيع الحقوق، وتربية الإنسان، ونظام المحاسبة، وعلاقة القوة بالأخلاق.

وعلى المستوى النفسي تقول الآية للإنسان: لا تجعل المغفرة ذريعةً للتكرار المتعمد. الله رحيم، لكن رحمته لا تعني أن العبت بلا عاقبة. من عاد إلى الجرح نفسه بالأداة نفسها، وهو يعرف، لا يحتاج إلى أمنيات جديدة، بل إلى قرار جديد.

ثم تختتم الآية بالمصير الأخير: (وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا)؛ أي محبسًا ومحيطًا لا يفلتون منه. فمن أفلت من عواقب التاريخ لم يفلت من عاقبة الآخرة، ومن خدع القضاء في الأرض لا يخدع عدل السماء.

وهكذا تضع السورة الإنسان بين بابين: باب الرحمة المفتوح للتائبين، وباب العدل الذي لا يستطيع المستكبرون الفرار منه.

الخلاصة الأولى

لا عروج بلا عبودية، ولا استخلاف بلا أخلاق

في الآيات الثماني الأولى اجتمعت خريطة السورة كلها: عبدٌ صادق يرفعه الله، وكتابٌ يهدي، وذاكرة نجاة تستدعي الشكر، وأمة يفسدها العلو، وسننٌ تردعها، ورحمةٌ تفتح لها باب العودة.

وكان السورة تقول: إن الطريق من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليس مسافةً في الجغرافيا وحدها، بل مسافة في بناء الإنسان. فالمقدسات لا يحررها قلب مستعبد لشهوته، ولا يحفظها مجتمع يهدم العدل في داخله، ولا تستردها أمة تطلب التمكين قبل أن تبني أخلاق التمكين.

قبل أن تسأل: متى نُمكن؟

اسأل: أيُّ إنسان سيحمل هذا التمكين؟

أعبدٌ شكور، أم مستكبر يعيد دورة الفساد؟

إنسانٌ يرى القوة أمانة، أم يراها فرصةً للعلو؟

أمةٌ يهديها الكتاب، أم أمةٌ ترفع الكتاب ثم توكل أمرها إلى غير الله؟

لقد بدأ الإسراء من مقام العبودية؛ لأن من لم يتحرر الله في داخله، لن يصنع تحريرًا صادقًا في خارجه. ومن لم يعرج بأخلاقه فوق أحقاده وشهواته، فقد يقطع إلى القدس آلاف الأميال، لكنه لا يبلغ معناها.

وسوف ينقلنا السياق بعد ذلك من تاريخ الأمم إلى نور القرآن، ومن مسؤولية الجماعة إلى مسؤولية الفرد، ليبدأ بناء الإنسان من قاعدته الأولى:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ...).

الفصل الثاني

الْقُرْآنُ الَّذِي يُقَوِّمُ مَا اعْوَجَّ فِي الْإِنْسَانِ

من هداية الطريق إلى صناعة النفس المسؤولة

قال الله تعالى: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا) ○ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) (الإسراء: ٩-١٠).

بعد أن عرضت السورة كتاب موسى، وتاريخ أمةٍ تَلَقَّتْ الكتاب ثم انحرقت عن مقتضاه، جاء الحديث عن القرآن؛ لنلا تظن الأمة الجديدة أن مجرد انتسابها إلى كتابها يعصمها من سنن السقوط. فالكتاب لا ينقذ من يحمله اسمًا ويتركه منهجًا، ولا يرفع قومًا يجودون حروفه ثم يخرقون حدوده في السوق والسياسة والأسرة والضمير.

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ)؛ والإشارة بـ** (هَذَا) ** تستحضر القرآن كأنه حاضر بين يديك، قريب منك، يخاطبك الآن. ليس أثرًا من الماضي، ولا صوتًا من وراء أربعة عشر قرنًا، بل هداية حية تقف عند أبواب النفس في كل لحظة وتسالها: إلى أين تمضين؟

ولم تقل الآية: يهدي إلى «القويم» فحسب، بل قالت: (لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)؛ أي إلى الطريقة والحالة والملة التي هي أبلغ في الاستقامة. إن القرآن لا يخرج الإنسان من الباطل إلى الحق فقط، بل يرشده - داخل مساحات الخير نفسها - إلى الأحكم والأعدل والأكمل. قد تكون أمامك طرائق صالحة، فيرشدك

إلى أصلحها؛ ومواقف عادلة، فيأخذك إلى أعدلها؛ وكلمات صادقة، فيعلمك أيها أرفق وأبلغ وأحفظ للكرامة.

إنه لا يريد للإنسان أن يكون صالحًا كيفما اتفق، بل أن يكون صالحًا على بصيرة؛ لأن النية الطيبة إذا انفصلت عن الحكمة قد تجرح وهي تريد أن تداوي، وقد تهدم وهي تتوهم أنها تبني.

و«الأقوم» كلمة تستوعب الوجود كله: أقوم في تصور الله، فلا تشبيه ولا تعطيل؛ وأقوم في تصور الإنسان، فلا تأليه له ولا امتهان؛ وأقوم في علاقة الروح بالجسد، فلا رهبانية تخنق الفطرة ولا مادية تطفئ الروح؛ وأقوم في الاقتصاد، فلا احتكار متوحش ولا إلغاء للملكية؛ وأقوم في الحكم، فلا طغيان الفرد ولا فوضى الأهواء؛ وأقوم في الأسرة، فلا تسلط ولا تفكك؛ وأقوم في القوة، فلا عجز يطمع الظالم ولا بطش يجعل المظلوم نسخة من ظالمه.

وفي عصر يملك الإنسان فيه وفرة هائلة من المعلومات، تبدو حاجته إلى «الأقوم» أشد من أي وقت مضى. مشكلته ليست دائمًا أنه لا يعرف الخيارات، بل أنه غارق في كثرتها، عاجز عن ترتيبها أخلاقيًا. التقنية تقول له: هذا ممكن، والقرآن يسأله: هل هو حق؟ السوق يقول: هذا مربح، والقرآن يسأل: هل هو طيب؟ الجمهور يقول: هذا شائع، والقرآن يسأل: هل هو مستقيم؟

ولم يقل: «يهدي للأكثر رواجًا»، ولا «للتي هي أسهل»، بل (لَّتِي هِيَ أَقْوَمُ). فالحق لا يستمد قيمته من التصفيق، والاستقامة لا تتغير بتغير المزاج العام.

لكن الهداية لا تكون ثمرةً بلا عمل؛ ولذلك قال: **(وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ)**. جمع بين الإيمان والعمل؛ لأن الإيمان الذي لا يلد أثراً في السلوك قد بقي دعوى في اللسان أو شعوراً في النفس. والعمل الصالح هو الإيمان حين يغادر خاطر ليصير خبراً للجائع، وعدلاً للمظلوم، وأمانةً في المنصب، ورحمةً في البيت، وصدقاً حين تكون الكذبة أنفع في حساب الدنيا.

(أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا)؛ وُصف الأجر بالكبر من غير تحديد؛ لأن ما أعدّه الكبير سبحانه أكبر من أن يحيط بوصفه خيال. ولعل في هذا الإطلاق تربيةً للقلب على ألا يحصر الجزاء في الصورة التي يتمناها؛ فقد يدخر الله لعبده ما يتجاوز كل ما خطر له.

ثم يجيء الوجه الآخر: **(وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)**. وخصّ إنكار الآخرة؛ لأن الآخرة هي الميزان الذي يمنع الإنسان من اختزال الوجود في لحظته الراهنة. فإذا سقطت الآخرة من الضمير، صار النجاح هو الإفلات المؤقت، والريح هو ما دخل اليد ولو خرجت من أجل تحصيله الروح، وصار الظالم ذكياً ما دام القانون لم يدركه.

الإيمان بالآخرة ليس فكرةً مضافة إلى البناء الأخلاقي؛ إنه سقفه الذي يحميه من الانهيار. من أيقن أنه سيقف وحده بين يدي الله، لم تعد الجماعة قدرةً على تبرير جريمته، ولا المصلحة على غسل خيانتة، ولا كثرة المشاركين على تحويل الباطل إلى حق.

الإنسان العجول: حين يستبق الألم بصيرته

قال الله تعالى: (وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا) (الإسراء: ١١).

بعد الحديث عن القرآن الذي يهدي إلى الأقوم، تكشف السورة أحد أعظم العوائق النفسية أمام هذه الهداية: العجلة. فالقرآن يقيم الميزان، لكن النفس المتألمة تريد حكمًا عاجلاً؛ والقرآن يفتح الأفق، لكن الإنسان المنفعل لا يرى إلا الدقيقة التي تحاصره.

قد يدعو على نفسه، أو ولده، أو ماله في لحظة غضب؛ ويطلب بلسانه ما لو استجيب له لبكى عمرًا كاملاً. وقد يستعجل أمرًا يراه خيرًا، وهو لا يعلم أن في تأخيرهِ نجاته. وقد يضيق بمرحلة من حياته فيطلب الخروج منها بأي ثمن، غير مدرك أن الباب الذي يريد كسره يفتح على هاوية.

(وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ)؛ شبه اندفاعه نحو الشر في لحظة الجهل بدعائه المعتاد بالخير. وما أصدق الآية في النفس البشرية! فالإنسان لا يريد الشر غالبًا لأنه شر، بل لأنه يتنكر له في هيئة راحة عاجلة، أو انتصار سريع، أو خلاص قريب. يطلب اللذة فتأتيه التبعة، ويطلب الانتقام فتزداد جراحه، ويطلب الشهرة فتسلبه نفسه.

وفي الآية رحمة مستترة: كم من دعاء شرٍّ لم يُجبه الله، فكان عدم الإجابة عين العطاء! وكم من أمنية أبطأها الله؛ لأن الرحمة كانت واقفةً بين العبد وبين ما يطلب! إننا نحفظ قائمةً بما سألنا الله فأعطانا، وننسى قائمةً أطول مما سألناه فمنعنا، ولو كشف لنا وجه الحكمة لسجدنا شكرًا على الأبواب التي لم تُفتح.

(وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا)؛ لم تقل: «يتعجل» فحسب، بل جاءت الصيغة دالةً على رسوخ هذا الوصف في طبعه.

إنه يرى البذرة اليوم فيريد ثمرتها غداً، ويخطو أول الطريق فيريد منزلة الواصلين، ويدعو مرةً فيريد أن تتغير له خريطة الوجود.

والعجلة ليست سرعة الحركة؛ فقد يكون المرء سريعاً حكيماً. إنما العجلة أن يتحرك قبل اكتمال الرؤية، وأن يقطف الشيء قبل نضجه، وأن يحكم على القصة من أول مشهد فيها.

وفي البناء الإيماني لا يُقتل هذا الدافع، بل يُهذَّب. يتعلم المؤمن أن يسرع إلى الخير، لكنه لا يستعجل الثمرة؛ وأن يبادر إلى العمل، لكنه يسلم توقيت النتائج لله. فما كل تأخيرٍ حرمان، ولا كل سرعة إنجاز؛ وبعض الأقدار تنتزع في الغيب على مهل، لأن الله يعدّ لك النعمة ويعدّك لها.

الليل والنهار: تربية الإنسان على فقه المراحل

قال الله تعالى: (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا) (الإسراء: ١٢).

بعد تشخيص العجلة، يعرض القرآن مدرسةً كونية تعالجها: الليل والنهار. فالكون لا يعيش في نهار دائم، ولا في ليل دائم؛ وإنما يتربى بالحركة بين الخفاء والتجلي، والسكون والسعي، والانقباض والانبساط.

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ)؛ ليست قيمتهما فيما يقدمانه من ضوء وظلمة فحسب، بل فيما يحملانه من دلالة. الليل يخبرك أن الأشياء قد تغيب ولا

نتعذب، والنهار يعلمك أن الغياب ليس أبدياً. كل فجر حجة على اليأس، وكل غروب موعظة للغرور.

(فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ)؛ فألبسها الله سكون الظلمة، (وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً)؛ أي مضيئةً يُبصر بها الناس طرق معاشهم. وفي وصف النهار بأنه «مبصر» صورة بديعة؛ كأن النهار نفسه عينٌ مفتوحة، تتيح للأشياء أن تظهر وللساعي أن يعرف موطئ قدمه.

ليس المطلوب من الإنسان أن يحوّل حياته كلها إلى نهار عمل، فيستنزف جسده وروحه حتى يختل توازنه؛ ولا أن يجعلها ليلاً من الانسحاب والخمول. فرب الوجود جعل للسكون آية، وللحركة آية. ومن الحكمة أن تعرف متى تمضي، ومتى تستريح؛ متى تتكلم، ومتى يكون الصمت ترميماً للروح.

أما الإنسان المعاصر فقد قاوم الليل بالأضواء والشاشات، حتى كاد يفقد نعمة السكون. صار يحمل السوق والأخبار والناس إلى فراشه، وينام جسده بينما يظل وعيه راكضاً. كثرت وسائل الراحة، وقلّ الارتياح؛ لأن الجسد وُضع على السرير، لكن الروح لم تُمنح ليلها.

(لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ)؛ حتى السعي الدنيوي سماه الله ابتغاءً من فضله. فالرزق ليس ثمرة الجهد وحده، وإن كان الجهد سبباً؛ إنه فضل الله يمر عبر الأسباب. وهذه الرؤية تحمي العامل من الكسل ومن الغرور معاً: يعمل لأنه مأمور بالسعي، ويتواضع لأنه يعلم أن النتيجة فضل.

(وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ)؛ فالزمن ليس مادةً للاستهلاك، بل ميزان للمسؤولية. نعدّ السنوات، ولكن السنوات تعدّنا أيضاً؛ تمر بنا فتأخذ

من أعمارنا وتضيف إلى صحائفنا. وكل يوم ينتهي ليس رقماً سقط من التقويم، بل قطعة من وجودنا انتقلت إلى خزائن الآخرة.

(وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا)؛ فالكون ليس فوضى، والوحي ليس غموضاً مقصوداً لإتاعب البشر. لقد أقام الله الدلائل، وفصل ما تحتاج إليه الهداية؛ لكن الإنسان قد يطلب مزيداً من البيان حين تكون مشكلته الحقيقية أنه لا يريد الالتزام بما بان.

كتابك يخرج من داخلك

قال الله تعالى: (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا) ○ افرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً (الإسراء: ١٣-١٤).

من حساب السنين تنتقل السورة إلى حساب الأعمال. الزمن وعاء، والعمل هو ما نملأ به هذا الوعاء؛ وعندما ينتهي العمر لا يخرج الإنسان من الحياة فارغ اليدين، بل يحمل تاريخاً صنعه بقراراته الصغيرة قبل الكبيرة.

(وَكُلَّ إِنْسَانٍ)؛ لا استثناء لأحد. الحاكم والمحكوم، الغني والفقير، المشهور والمنسي، كلهم يدخلون في وحدة المسؤولية. قد تُوزع الامتيازات في الدنيا بغير عدل، لكن المسؤولية أمام الله لا تعرف طبقةً محصنة.

(الْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ)؛ والطائر ما طار للإنسان من عمله وحظه، أي ألزمناه عمله لا يفارقه. واختيار العنق يصور شدة الملازمة؛ فالشيء المعلق في العنق يرافق صاحبه أينما اتجه. تستطيع أن تغادر مكان

خطيئتك، وأن تغَيّر صورتك أمام الناس، لكنك لا تغادر ما كتبت حتى تمحوه بتوبة صادقة.

إن الآية تهدم أو هام التهرب النفسي. فالإنسان بارع في صناعة الأعذار: يحمّل أسرته، ومجتمعه، وخصومه، وتاريخه، وطبيعته النفسية مسؤولية كل شيء. ولا ينكر القرآن أثر الظروف، لكنه لا يسمح لها أن تلغي جوهر الاختيار. قد تفسّر الظروف بعض ضعفك، لكنها لا تحول الباطل إلى حق، ولا تسقط عنك كل مسؤولية.

وفي عصر البيانات الرقمية، صار الإنسان يرى صورةً مصغرة لهذا المعنى: كلمة كتبها قبل أعوام قد تعود إليه، وصورة ظنها اختفت قد تُستخرج، وأثر بحث أو نقرة يبقى مسجلاً. فإذا كانت أنظمة البشر الناقصة تحفظ هذا القدر من الآثار، فكيف بعلم الله الذي لا يضل ولا ينسى؟

لكن كتاب القيامة ليس سجلاً خارجياً فحسب؛ إنه صورة النفس وقد تحولت خفاياها إلى كلمات مشهودة: (كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا). لم يقل: «نعرضه عليه»، بل (يَلْقَاهُ)؛ كأن عمله كان يسير نحوه طوال حياته، وكأن اللقاء بين الإنسان وحقيقته موعد لا يتخلف.

(اقْرَأْ كِتَابَكَ)؛ يا لها من محكمة لا يحتاج فيها الدليل إلى مترجم! المتهم هو القارئ، والعمل هو الشاهد، والنفس تعرف خطها وإن أنكرت طويلاً. في الدنيا يختار الإنسان من سيرته ما يرويه، ويحذف ما يشوه الصورة، ويعيد صياغة الماضي حتى يبدو بطلاً دائماً؛ أما هناك فالسيرة غير محررة بأهوائه، والكتاب منشور لا تسقط منه الحواشي المظلمة.

(كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا). ليست المأساة أن يشهد عليك خصم، بل أن تبلغ الحقيقة من الوضوح حدًا تصبح فيه شاهداً على نفسك. يسقط الجدل، وتنتهي القدرة على المناورة، ويرى الإنسان ذاته بلا مرآة التبرير.

وهذا المعنى لا يريد أن يصنع نفساً مريضة بالوسواس، تحصي الأنفاس وتعيش مذعورةً من كل حركة؛ بل يريد نفساً يقظةً تحاسب نفسها قبل أن تُحاسب، وتتوب حين تخطئ، ولا تجعل تراكم الذنوب بديلاً عن إصلاحها. المؤمن لا يقرأ الآية ليبدأ من كتابه، بل ليبدأ من الآن تحرير صفحاته بالتوبة والإحسان.

لا يهتدي أحدٌ عنك، ولا يحمل وزرك أحد

قال الله تعالى: (مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) (الإسراء: ١٥).

بعد قوله: (اقْرَأْ كِتَابَكَ) تنقرر قاعدة المسؤولية الفردية: (مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ). الله غني عن طاعة العباد، والرسول لا تزيد رسالته بإيمانهم ولا تنقص بكفرهم. أنت أول المنتفعين بهدايتك، كما أنك أول من يكتوي بضالك.

وهنا يصح القرآن وهماً نفسياً يتسلل إلى التدين: أن يشعر الإنسان أنه يمينٌ على الله باستقامته، أو يمينٌ على الدعوة بخدمته، أو يمينٌ على الناس بأخلاقه. والحقيقة أنك حين تصدق لا تمنح الله شيئاً؛ إنما تنقذ قلبك من التشوه. وحين تعفو لا تنقص من حقك وحده، بل تحرر روحك من حمل الكراهية.

(وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا)؛ فالضلال ليس مغامرة فكرية بلا ثمن، ولا حرية محايدة الأثر. كل انحراف عن الحق يترك أثراً في بنية النفس؛ والكذبة الأولى تحتاج إلى كذبة تحرسها، والخيانة الأولى تضعف مقاومة الثانية، حتى يصبح ما كان يوجع الضمير عادةً لا يشعر بها.

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)؛ لا تحمل نفسُ آثمةٍ إثمَ نفسٍ أخرى.

بهذا يحرر القرآن الإنسان من الخطيئة الموروثة، ومن العقوبة الجماعية العمياء، ومن تعليق خطئه على سلالة أو قبيلة أو طائفة. لا يُدان ابنٌ بذنب أبيه، ولا قومٌ بجريمة فرد منهم، ولا يُبرأ امرؤ لأنه ينتمي إلى أسرة صالحة.

ومع فردية المسؤولية لا ينفي القرآن مسؤولية التأثير؛ فمن أضل غيره حمل إثم إضلاله مع بقاء وزر المضلل عليه. فالقاعدة لا تلغي الروابط، بل تمنع نقل الذنب من صاحبه إلى بريء.

ثم يظهر كمال العدل: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا). لا عقوبة قبل البيان، ولا مؤاخذه قبل قيام الحجة. إن الله الذي يعلم كل شيء لا يعامل عباده بعلم مجرد عن إظهار الحق لهم، بل يقيم الدليل؛ فكيف يجروء بشر محدود العلم على إدانة القلوب، أو محاكمة النيات، أو معاقبة الناس بالشبهة؟

إن دولة الاستخلاف تبدأ من هذه القاعدة: لا حكم بلا بيّنة، ولا عقوبة بلا قانون معلوم، ولا مؤاخذه جماعية بجريرة فرد. العدل ليس زينةً أخلاقية للدولة المؤمنة؛ إنه ترجمة بشرية - في حدود الطاقة - للإيمان بعدل الله.

حين تترف القمة فتغرق المدينة

قال الله تعالى: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا) ○ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا) (الإسراء: ١٦-١٧).

هذه الآية من أدق الآيات في تشريح السقوط الاجتماعي. وليس معناها أن الله يأمر المترفين بالفسق - تعالى الله عن ذلك - بل يأمرهم بالطاعة وما تقوم به الحجة، أو يكثرهم ويمكّنهم وفق القراءة والتفسير المعروفين، فيخرجون عن أمره، فيستحق المجتمع العقوبة بعد استحكام الفساد.

وخصّت الآية المترفين؛ لأنهم يملكون قدرة أكبر على تشكيل المزاج العام. الترف ليس مجرد امتلاك المال، بل حالة نفسية ينفصل فيها الإنسان عن حقائق الحياة، ويظن أن النعمة حق ذاتي لا أمانة، وأن حاجاته المتضخمة أهم من كرامات الآخرين.

حين تفسد الطبقات المؤثرة، يتحول الفساد من فعل فردي إلى ثقافة. يصبح الإسراف وجاهة، والاستغلال ذكاء، والتواضع ضعفاً، والنزاهة سذاجة. ثم يقلد الناس من يملكون الصورة والنفوذ؛ لأن المجتمع يتعلم بالقُدوة المرئية أكثر مما يتعلم بالموعظة المسموعة.

(فَفَسَقُوا فِيهَا)؛ لم يفسقوا بعيداً عنها، بل «فيها»، فسرى أثرهم في أحيائها وأسواقها ومؤسساتها. والفسق في أصله خروج؛ كخروج الرطبة عن قشرها. إنهم يخرجون عن حدود الفطرة والعدل، ثم يسمون هذا الخروج تحرراً أو تقدماً أو ضرورة.

(فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ)؛ أي استوفت شروط السقوط. فالله لا يهلك قريةً بسبب زلة عابرة، بل حين يصبح الفساد بنيةً تحمي نفسها، وحين تُعطل منافذ الإصلاح، ويُرفع المفسد، ويُحاصر الناصح، ويتحول الصمت إلى عرف عام.

(فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا)؛ جاء المصدر مؤكدًا للفعل، يرسم نهايةً لا تبقى للزخارف التي خدعت أهلها قيمة. وما أسرع انتقال المدن من صخب القوة إلى صمت الآثار حين يجيء وعد الله!

ثم يفتح القرآن أرشيف التاريخ: (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ). «وكم» هنا خبرية للتكثير؛ فليست تلك حادثة نادرة، بل سنة تكررت بأسماء ولغات ورايات مختلفة. تتغير الأزياء، ويبقى الكبر هو الكبر؛ تتطور الأسلحة، ويبقى الظلم هو الظلم؛ تتبدل المدن، ويبقى مصير الفساد واحدًا إذا استحكمت أسبابه.

(وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبٍ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا). قد تنجح السلطة في إخفاء السجون عن الكاميرات، وقد تعيد تسمية القمع أمنًا، والنهب استثمارًا، والخيانة واقعيةً سياسية؛ لكن تغيير الاسم لا يغير الحقيقة في علم الله. هو خبير ببواطن المنظومات، بصير بآثارها في الوجوه المنسية.

إرادة العاجلة وإرادة الآخرة

قال الله تعالى: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا) ○ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ○ كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ○ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا) (الإسراء: ١٨-٢١).

هنا تصل السورة إلى مركز البناء النفسي: ماذا تريد؟

ليست الأزمة دائمة في العمل، بل في القبلية الباطنة التي يتجه إليها العمل. قد يتحرك شخصان في الطريق نفسه، لكن أحدهما يريد وجه الله والدار الآخرة، والآخر يريد أن يكبر اسمه في عيون الناس. تتشابه الخطوات، وتختلف الرحلتان.

قال: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ)، ولم يقل: من أراد نصيبه المباح من الدنيا؛ فالإسلام لا يذم الدنيا من حيث هي مزرعة للآخرة. المذموم أن تصبح «العاجلة» هي الإرادة الحاكمة، وأن يضيق أفق الإنسان حتى لا يرى وراء اللحظة.

وسميت الدنيا «العاجلة» لتفضح سحرها النفسي: إنها تعرض ثمرتها قريبة مرئية، بينما تتطلب الآخرة يقيناً وصبراً. والنفس تميل إلى النقد الحاضر ولو كان قليلاً، وتستثقل الوعد المؤجل ولو كان أبدياً. ولهذا تُبتلى الإرادة: هل تختار ما يلمع الآن، أم ما يبقى عند الله؟

لكن الآية تهدم وهماً آخر: ليس كل من أراد الدنيا نالها؛ (عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ). ثلاثة قيود تقطع يد الغرور: «ما نشاء»، و«لمن نريد»، و«ضمناً في الوقت والقدر اللذين يختارهما الله». فالدنيا ليست آلة

صماء تخرج لكل طامع ما يشتهي. قد يطاردها الإنسان فتفر منه، وقد ينال بعضها ويُحرم السكينة التي أرادها من خلالها.

ثم ينتهي صاحب العاجلة: (مَذْمُومًا مَذْحُورًا)؛ مذمومًا على سوء اختياره، مطرودًا عن الرحمة. أراد المدح العاجل، فانتهى مذمومًا؛ وأراد القرب من مجالس النفوذ، فانتهى مدحورًا. يا للمقابلة التي تكشف خدعة الطريق!

أما الطريق الثاني فقال فيه: (وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ). لا يكفي أن يتمنى؛ فالإرادة الصادقة تتحول إلى سعي: (وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا). لم يقل: «وسعى لها سعيًا»، بل أضاف السعي إليها؛ أي السعي اللائق بها، الموافق للطريق الذي شرعه الله. فالغاية الشريفة لا تبرر الوسيلة الفاسدة، ولا تُنال الآخرة بخيانة قيمها.

ثم جاء الشرط الثالث: (وَهُوَ مُؤْمِنٌ). إرادة، وسعي صحيح، وإيمان؛ ثلاثة أركان تبني العمل المقبول. إرادة توجهه، ومنهج يصححه، وإيمان يمهده بالحياة.

(فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا). وما أرق هذه العبارة! الله الغني يشكر لعبده سعيه؛ لا لأنه أدى ما يساوي الجنة، بل تفضلاً ورحمة. ويشكر السعي، لا النتيجة وحدها؛ لأن النتائج ليست كلها في يد الإنسان. قد تسعى لإصلاح ولا ترى تمامه، وتغرس شجرةً يستظل بها جيل لم تولد عينك لترى وجوهه، لكن خطوة الصدق لا تضيع عند الشكور.

وهذا يحرر صاحب الرسالة من عبودية النتائج. أنت مأمور أن تسعى «سعيها»، لا أن تجبر التاريخ على أن يثمر في موعذك. يكفي أن يكون سعيك صحيح الوجهة والطريقة؛ أما زمن الفتح فإلى الله.

ثم يقول: (كُلًّا نُمِدُّ هُوْلَاءِ وَهَؤْلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ). يمد الله طالب الدنيا وطالب الآخرة بأسباب الحياة؛ فالعطاء الدنيوي لا يساوي المحبة، والحرمان الدنيوي لا يساوي الإهانة. قد يعطي الله من لا يحبه مالا وصحةً ونفوذاً؛ لأن الدنيا عطاؤها عام، أما قربه ورضوانه فنعمة أخرى.

(وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا)؛ لا يستطيع أحد أن يقيم سياجاً حول خزائن الله. قد يحاصر كالبشر، ويغلقون دونك أبواب الوظيفة أو المنبر أو المكانة، لكنهم لا يملكون أن يحظروا عطاء ربك. وربما منعوك طريقاً صغيراً، ففتح الله لك أفقاً لم يخطر لهم ولا لك.

ثم يدعونا إلى النظر: (انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ). تفاوت الدنيا ظاهر: في الأرزاق، والمواهب، والقوة، والفرص. لكنه تفاوت امتحان لا حكم نهائي على قيمة الإنسان. الغني ممتحن فيما أُعطي، والفقير ممتحن فيما مُنِع، والعالم ممتحن في علمه، وصاحب النفوذ في قدرته.

(وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا). ما تتنافسون فيه هنا فروق صغيرة في عالم زائل، أما الفروق الحقيقية فهناك. قد يفصل في الدنيا بين قصر وكوخ بضعة أمتار، ثم يبتلع التراب ساكنيهما؛ أما في الآخرة فبين الدرجات ما لا تقيسه خرائط الأرض.

فلا تقرأ موقعك الدنيوي بوصفه الحكم الأخير عليك. قد تكون مجهولاً في الأرض معلوماً في السماء، وقد تكون في آخر الصفوف في أعين الناس، وأنت عند الله في مقام لا يبلغه أصحاب المنصات.

الأصل الذي إن استقام استقام البناء

قال الله تعالى: (لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا) (الإسراء: ٢٢).

بعد عرض الإرادتين، تبدأ الوصايا الأخلاقية من التوحيد؛ لأن الأخلاق في القرآن ليست أغصانًا معلقة في الهواء، بل تنبت من معرفة الله. من لم يعرف لمن يخضع، لن يعرف دائمًا لماذا يعدل حين يخسر بالعدل، ولا لماذا يصدق حين ينجو بالكذب.

(لَا تَجْعَلْ)؛ لأن الآلهة الباطلة لا تكون آلهة بذاتها، وإنما «يجعلها» الإنسان كذلك حين يمنحها من الخضوع والخوف والرجاء ما لا يليق إلا بالله. قد لا يسجد لصنم من حجر، لكنه قد يبني في قلبه صنمًا من شخص، أو حزب، أو مال، أو شهرة، أو ذات متضخمة.

والشرك النفسي يبدأ حين يصبح رضا الناس أهم من رضا الله، وحين يتحول فقدان شيء من الدنيا إلى انهيار كامل؛ لأن القلب علق معنى وجوده به. وكلما تعددت آلهة الإنسان الباطنة، تمزقت نفسه بين مطالبها: يريد أن يرضي الله، ويرضي الجمهور، ويحفظ مصلحته، ويصون صورته، ولو تعارضت كلها.

أما التوحيد فيجمع النفس بعد تشتتها. يجعل لها مركزًا واحدًا، وميزانًا واحدًا، ووجهة لا تتغير بتغير التصفيق. ولهذا كان التوحيد شفاءً نفسيًا قبل أن يكون قضيةً ذهنيةً؛ إنه يحرر الإنسان من الاستجداء الوجودي عند أبواب الخلق.

(فَتَقَعْدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا)؛ لم يقل: «فتصير» فقط، بل (فَتَقَعْدَ)، وفي القعود صورة العجز والانقطاع بعد الحركة. من طلب العزة من غير الله انتهى إلى قعود النفس، وإن بدا راكضًا في الدنيا.

(مَذْمُومًا)؛ لأنه وضع العبادة في غير موضعها، (مَخْذُولًا)؛ لأن ما اتخذه إلهاً لن يستطيع إنقاذه. كل معبود سوى الله يعد صاحبه بالقوة ثم يتركه عند لحظة الحقيقة. المال يتركه على باب الموت، والجمهور ينتقل إلى اسم آخر، والسلطة تنفض عنه كما تنفض الشجرة ورقةً يابسة.

وهكذا تنتهي هذه الجولة من السورة عند أول أساس لبناء إنسان الاستخلاف: أن يتحرر قلبه من كل سيادة تنازع سيادة الله.

فلا عدل بلا توحيد كامل؛ لأن من خاف البشر أكثر من الله سيبيع العدل إذا هدده البشر. ولا شجاعة بلا توحيد؛ لأن من ظن أن رزقه في يد الناس سيصمت حين يجب الكلام. ولا كرامة بلا توحيد؛ لأن من طلب قيمته من أعين الخلق عاش متسولاً للقبول، ولو لبس ثياب الملوك.

ومن هذا الأصل ستنتقل السورة إلى أعظم دوائر الأخلاق الإنسانية: إلى الوالدين، والقراة، والمسكين، وابن السبيل؛ لتعلن أن صدق العبودية لله لا يبقى نوراً معزولاً في القلب، بل يتحول إلى رحمةٍ تمشي بين الناس:

(وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...).

الفصل الثالث

دُسْتُورُ الْإِنْسَانِ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْإِسْتِخْلَافَ

من محراب التوحيد إلى رحمة الإنسان

قال الله تعالى: (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) ○ (وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) ○ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا) (الإسراء: ٢٣-٢٥).

لم تكد الآية السابقة تنهى عن الشرك حتى جاءت هذه الآيات لتبين أول أثر اجتماعي للتوحيد: الإحسان إلى الوالدين. فالعقيدة في القرآن لا تبقى فكرةً عاليةً معلقة فوق الحياة، بل تهبط فوراً إلى البيت؛ إلى نبرة الصوت، وحركة الوجه، وطريقة الجلوس إلى أبٍ ضعيف، وأمٍ أثقل العمر خطاها.

(وَقَضَىٰ رَبُّكَ)؛ والقضاء هنا أمرٌ محكم مؤكد، لا هامش فيه للتردد. ولم يقل: «وقضى الله» فقط، بل قال: (رَبُّكَ)؛ لأن الذي يأمرك بالإحسان إليهما هو الذي رباك بنعمته، وجعل تربيتكما لك سبباً ظاهراً من أسباب رعايته.

ثم جاء أصل الأصول: (أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ)، وأعقبه مباشرةً: (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا). لم يجعل بر الوالدين عبادةً لهما، فالعبادة لا تكون إلا لله، ولكنه جعله أقرب الحقوق البشرية إلى حقه سبحانه. وكأن من لم يحفظ فضل اليد التي حملته صغيراً، كان قلبه مهتداً بالعجز عن الوفاء لكل فضل.

واختار لفظ (إِحْسَانًا)، لا مجرد الطاعة؛ لأن الطاعة قد تكون فعلًا ظاهرًا يؤديه الإنسان وقلبه متبرم، أما الإحسان فهو أن تمنح فوق الواجب، وأن تختار أجمل القول والفعل، وأن تراعي ضعفهما قبل أن يطلبها، وأن تحفظ كرامتهما حين يصير احتياجهما إليك ظاهرًا.

(إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ)؛ وتأمل كلمة (عِنْدَكَ). لم يقل: «بيلغا الكبر» فحسب، بل جعلهما عندك؛ في رعايتك وقربك ودفء بيتك، لا في هامش حياتك ولا وراء باب أغلقته المشاغل. فالكبر لا يحتاج إلى النفقة وحدها، بل إلى أن يشعر الأبوان أنهما لم يتحوّلا إلى عبء، وأن ضعفهما لم يسقط منزلتهما.

إن الطفولة والشيخوخة تتشابهان في الضعف، لكن بينهما فرقًا مؤلماً: الطفل يضعف وهو يتقدم إلى القوة، فيفرح الناس بكل خطوة يخطوها؛ والشيخ يضعف وهو يبتعد عنها، فيرى ما يفقده يومًا بعد يوم. ولهذا احتاج إلى رحمة مضاعفة؛ لأنه لا يحمل عجز الجسد وحده، بل يحمل وعيه بالعجز وذكرىات القوة التي كانت.

(أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا)؛ حتى لو بلغ الكبر أحدهما فقط، فالحكم قائم. لا ينتظر الإحسان اكتمال صورة الضعف، ولا يشترط اجتماع الحاجة من الجانبين.

ثم يبدأ القرآن بأصغر ما قد يظهر من الأذى: (فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ). ليست «أف» شتيمَةً صريحة، بل نفس ضيق وتسرب ضجر؛ ومع ذلك حرمها الله، لأن القلوب الكبيرة قد تنكسر بالأصوات الصغيرة. قد تعطي والديك المال كله، ثم تسلبهما كرامتهما بزفرة واحدة تشعرهما أن وجودهما ثقل.

وإذا كان الله قد منع أدنى مراتب التضجر، فما بالك بالصراخ والإهانة والهجر والتعبير بالعجز؟ إن القرآن يغلق باب الأذى من عتبه النفسية الأولى، قبل أن يتحول النفور الباطن إلى سلوك فظ.

(وَلَا تَنْهَرُهُمَا)؛ والنهر هو الزجر بخشونة. وقد يكرر الشيخ السؤال، أو ينسى ما قلته له، أو يخلط بين التفاصيل، فيمتحن الله فيك الوفاء: هل تتذكر كم مرة كررت أمك الكلمة لتعلمك النطق؟ وكم مرة أعاد أبوك المحاولة حتى تثبت قدمك؟

ثم لا يكتفي القرآن بمنع الأذى، بل يأمر بالبديل الجميل: (وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا). والقول الكريم هو الذي يكرم قائله وسامعه؛ قولٌ خالٍ من المنّة، مشبع بالاحترام، لا يشعرهما بأنك تتفضل عليهما.

قد يكون الطعام لينًا والبيت واسعًا، لكن الكلمة قاسية؛ فيعيشان في سعة المكان وضيق القلب. والقرآن يريد أن يكون اللسان نفسه مأوى.

جناح لا يرى، ولكن يشعر به القلب

(وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ).

يا لها من صورة! يجعل القرآن للإنسان جناحًا، ثم يأمره أن يخفضه. والطائر يخفض جناحه حمايةً واحتضانًا وقربًا؛ فلا يقف الابن فوق والديه مستعرضًا قوته، بل ينحني لهما رحمةً.

ولم يقل: «واخفض لهما جناح الذل» فقط، بل قال: (مِنَ الرَّحْمَةِ)؛ لأن الذل قد يصدر عن خوفٍ أو ضعف أو مصلحة، أما المطلوب هنا فهو

تواضع المحب، لا مهانة المقهور. تخفض جناحك وأنت قادر على الارتفاع؛ لأن الرحمة جعلت قوتك خادمةً لضعفهما.

إن المجتمع المادي يقيس الإنسان بمقدار إنتاجه، فإذا كبر وضعف عطاؤه الاقتصادي انخفضت قيمته في أعين الناس. أما القرآن فينقل الإنسان من مقياس المنفعة إلى مقياس الكرامة؛ فالأب لا يفقد حقه حين يفقد قوته، والأم لا ينتهي فضلها حين تنتهي قدرتها على الخدمة.

وفي زمنٍ صار فيه الأبناء يسافرون داخل هواتفهم وهم جالسون قرب آبائهم، يصبح البر أكثر من حضور الجسد. قد يكون الابن في الغرفة نفسها، لكنه بعيد آلاف الأميال بوجهه وسمعه واهتمامه. والإحسان أن تمنحهم حضورك، لا أن تضع قربهم جسداً غائب الروح.

ثم يقول: (وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا). بعد استنفاد طاقة الإنسان في الإحسان، يبقى فضل الوالدين أكبر من أن يوقى؛ فيرفع الابن عجزه إلى الله، ويسأله أن يتولى مكافأتهما برحمته.

(كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)؛ لا كما أنفقا فقط، بل كما ربّيا. والتربية رعاية ممتدة: سهر، وخوف، وصبر، وتكرار، وتنازل خفي عن أشياء كثيرة كي يكبر الطفل. قد لا يتذكر الابن شيئاً من سنوات ضعفه الأولى، لكن جسده الذي نما شاهد على حبِّ لم يكن يعيه.

وهذه الدعوة تحفظ الذاكرة من الجحود. فمن طبائع الإنسان أنه يتذكر لحظات تقصير والديه، وينسى آلاف اللحظات التي رعاياه فيها. نعم، قد يخطئ الأبوان، وقد تقع منهما مظالم تحتاج إلى معالجة حكيمة، وليس البر

إقرارًا للباطل ولا طاعةً في المعصية؛ لكنه يمنع الخطأ من أن يمحو تاريخ الفضل كله.

ثم تفتح الآية باب الرحمة لمن قصر: (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا).

الله يعلم ما في النفس: يعلم الفرق بين من زلّ لسانه ثم انكسر ندمًا، وبين من استوطن العقوق قلبه. ويعلم تعب الابن الذي يرفع والدًا شديد الطبع ويجاهد نفسه كي لا يسيء. لا يطالبه القرآن أن يكون بلا مشاعر بشرية، لكنه يطالبه أن يهذبها وألا يحول إرهاقه إلى إذلال.

(لِلْأَوَّابِينَ)؛ والأواب كثير الرجوع. قد يخطئ، لكنه لا يقيم في خطئه؛ يعود كلما ابتعد، ويصلح كلما أفسد. إن الصلاح ليس عصمةً من الزلل، بل صدقٌ في الرجوع بعده.

من برّ الأسرة إلى عدالة المجتمع

قال الله تعالى: (وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذِرْ تَبَذِيرًا ۚ إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا) (الإسراء: ٢٦-٢٧).

بعد الوالدين تتسع دوائر المسؤولية: القريب، والمسكين، وابن السبيل. يبدأ الإصلاح من البيت، لكنه لا ينتهي عنده؛ وإلا تحول التماسك العائلي إلى عصبية تستأثر بالخير وتغلق الباب دون الآخرين.

(وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ)؛ لم يسمه صدقةً أو منّة، بل حقًا. وهذه الكلمة تقلب نفسية العطاء؛ فالفقير لا يقف عند بابك ليسألك شيئًا لا علاقة له بك، بل

في مالك حق جعله الله له. وأنت لا تصنع كرامته بعطائك، بل تؤدي حقًا
ائتمنك الله عليه.

وللقريب حق المال إذا احتاج، وحق الصلة، والسؤال، والمواساة، والنصرة
بالعدل. وقد يكون الإنسان كريماً مع الغرباء لأنه يحب صورته في أعينهم،
ثم قاسياً على أهله لأنهم يرون حقيقته بلا زينة. والقرآن يمتحن الإحسان
في الدائرة التي لا تصفق لك.

ثم (المُسْكِينُ)؛ وهو الذي أسكنته الحاجة وأضعفت حركته. لم يقل: حق
المسكين الذي تعرفه أو يوافقك أو يشرك؛ إنما جاءت إنسانيته وحاجته
أساساً لحقه.

ثم (ابْنُ السَّبِيلِ)؛ ذلك الغريب الذي انقطع عن ماله وأهله، حتى كأن
الطريق صار أباه المنسوب إليه. وفي ذكره بناءً لمجتمع لا يترك الغريب
فريسةً للوحدة والحاجة. الحضارة لا تُقاس فقط بكيفية احتفائها بأقويائها،
بل بكيفية استقبالها لإنسان لا سند له فيها.

لكن الآية التي تأمر بالعطاء تنهى في اللحظة نفسها عن التبذير: (وَلَا تُبْذِرْ
تَبْذِيرًا). فالسخاء ليس فوضى، والكرم ليس إتلافًا للنعمة. التبذير إنفاق
المال في غير حقه؛ قد يكون كثيرًا، وقد يكون قليلًا إذا وُضع في باب
الفساد.

والتبذير في العصر الحديث لم يعد قرار فرد واحد فقط، بل صار نظامًا
اقتصاديًا وثقافةً إعلانيةً تقنع الإنسان أن قيمته فيما يشتري، وأن السعادة
وراء المنتج التالي. يُصنع الشيء ليبلى سريعًا، ويُستبدل النافع طلبًا

للأحدث، وتُرمى الأطعمة في جانب من العالم بينما يموت الجائعون في جانب آخر.

إن المبذر لا يستهلك الأشياء وحدها؛ إنه يستهلك عمره الذي بذله لتحقيق ثمنها، وموارد الأرض التي استنزفت لإنتاجها، وحقوقاً كان يمكن أن تُسد بها حاجة.

(إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ)؛ أخوتهم للشياطين أخوة تشابه في المنهج والسلوك. فالشيطان يفسد النعمة، والمبذر يخرج بها عن غايتها؛ والشيطان يزين اللحظة ويخفي العاقبة، والتبذير ابن لهذه النظرة القصيرة.

(وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا)؛ فالتبذير متصل بالكفران؛ لأن الشاكر يعرف قيمة النعمة ويحفظها، أما من هانت عليه فقد غاب عن قلبه شهود المنعم. وكل شيء لا تشكره يُوشك أن تسيء استعماله.

حين لا تملك العطاء، فلا تحرم المحتاج جمال الكلمة

قال الله تعالى: (وَأِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا) (الإسراء: ٢٨).

يعالج القرآن لحظة إنسانية دقيقة: قد يأتيك ذو القربى أو المسكين أو ابن السبيل، ولا تجد ما تعطيه. ماذا تفعل حين تعجز يدك؟

سمّى الله انتظار الرزق (ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا)؛ فلم يسم الفقر فشلاً ولا مهانة، بل ترقباً للرحمة. إن المؤمن لا يرى خلو يده حكماً نهائياً، وإنما مرحلة يقف فيها عند باب فضل الله.

لكن المحتاج الذي لم يجد منك مالاً ينبغي ألا يرجع مكسوراً: (فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا). قولاً ليناً سهلاً يفتح الرجاء، ويعتذر بصدق، ولا يجرح السائل. فإن لم تستطع أن تيسر حاجته، فلا تعسر قلبه.

قد تكون الكلمة هي المال الوحيد الذي تملكه في تلك اللحظة؛ فلا تبخل بها. كم من فقير تحمل ألم الجوع، لكنه لم يتحمل نظرة الاحتقار! وكم من محتاج نسي قلة ما أعطي، ولم ينس دفع الطريقة التي عومل بها!

وفي الآية تربية للمؤسسات والمجتمعات أيضاً: ليست كرامة المحتاج بنداً زائداً بعد تقديم الخدمة؛ إنها جزء من الخدمة. فإذا حصل الفقير على حقه بعد إذلالٍ طويل، فقد وصل إليه المال ولم يصل إليه العدل كاملاً.

يَدٌ لَا تُغَلُّ، وَلَا تُنْقَلُ

قال الله تعالى: (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا) (الإسراء: ٢٩).

يرسم القرآن صورتين متقابلتين: يداً مشدودة إلى العنق لا تمتد بعباء، ويداً مبسوطة كل البسط لا تمسك شيئاً. وبينهما يقوم اقتصاد النفس المتوازنة.

البخيل لا يملك المال فحسب؛ المال يملكه. يغل يده إلى عنقه، فكأن القيد الذي صنعه من خوف الفقر صار يمنعه حرية الإحسان. يجمع الأشياء ليشعر بالأمان، ثم يصبح خوفه من فقدانها مصدر قلق دائم.

والمسرف في الجهة الأخرى لا يقرأ العواقب. قد ينفق طلباً للثناء، أو هرباً من شعور داخلي بالنقص، أو اندفاعاً عاطفياً يترك وراءه حقوقاً ضائعة. ليس كل بسطٍ للمال كرمًا؛ فقد يكون عجزاً عن ضبط الرغبة، أو شراءً لمحبة الناس.

(فَتَقْعَدَ مَلُومًا مَحْسُورًا)؛ تلومك نفسك أو من ضيعت حقوقهم، وتصبح منقطعاً عاجزاً كالدابة التي أجهدتها السير. والقرآن لا يريد عطاءً يلمع في لحظة ثم يترك صاحبه ومن يعولهم في الحاجة، بل يريد خيراً مستداماً يحفظ الحقوق والتوازن.

هذه الوسطية ليست برودةً حسابية، بل حكمة الرحمة. فمن أحب الفقير حقاً لم يعطه اليوم بطريقة تجعله عاجزاً عن مساعدته غداً، ومن أحب أهله لم ينفق حقوقهم طلباً لصورة السخي أمام الناس.

الرزق ليس شهادة قيمة

قال الله تعالى: (إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا) (الإسراء: ٣٠).

بعد النهي عن البخل والإسراف، يرد القرآن القلب إلى مصدر الرزق. أنت مأمور بالتدبير، لكنك لست سيد الخزائن. تبذل السبب، ويبسط الله أو يقدر؛ أي يوسع أو يضيق بحكمته.

ليست السعة دائماً مكافأة، ولا الضيق دائماً عقوبة. قد يوسع الله على إنسان امتحاناً لشكره، ويضيق عليه حمايةً من طغيان يعرفه فيه، وقد يمنحه بعد طول انتظار حين يصير قلبه أهلاً للعطاء.

(إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)؛ يعلم ما يصلح لكل نفس، ويبصر أين تفسدها الوفرة وأين يهذبها المنع. ونحن نرى المال، ولا نرى ما قد يصنعه المال في أعماقنا. نطلب النعمة في صورتها، والله يعلم حقيقتها وعاقبتها.

وهذه الآية تحرر الفقير من احتقار نفسه، وتحرر الغني من عبادة استحقاقه. مقدار ما في اليد ليس مقياس مقدار الإنسان عند الله. قد تضيق خزانتك ويتسع قلبك، وقد تمتلئ خزانتك وتعيش روحك في فقرٍ لا يشبعه شيء.

حين يتحول الخوف على الحياة إلى قتل للحياة

قال الله تعالى: (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا) (الإسراء: ٣١).

بعد تقرير أن الله يبسط الرزق ويقدر، يأتي النهي عن قتل الأولاد خشية الفقر. فالخوف من المستقبل قد يدفع الإنسان إلى ارتكاب الجريمة في الحاضر. يتوهم أنه يحمي الأسرة من الجوع، فيهدم الأسرة نفسها.

(خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ)؛ أي خوف فقر متوقع. الجريمة هنا لم تقع تحت ضغط واقع حاضر فقط، بل تحت سلطان سيناريو صنعه القلق. وكم من شر يصنعه الإنسان لا لأن المصيبة وقعت، بل لأنه خاف أن تقع! قد يخون خوفًا من الخسارة، ويظلم خوفًا من الضعف، ويتنازل عن مبادئه خوفًا من مستقبل لم يأت.

ثم يأتي الترتيب البديع: (نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ)؛ قدّم رزق الأولاد لأن الخوف متعلق بهم، وكأن الله يقول: لستم أنتم الذين تخلقون أرزاقهم ثم تقتطعون منها لأنفسكم؛ نحن نرزقهم ونرزقكم.

لا تعني الآية ترك التخطيط والمسؤولية، بل تنهى عن تحويل الحساب المادي إلى إله يقرر من يستحق الحياة. فالإنسان ليس رقمًا في ميزانية، والطفل لا يأتي إلى الوجود مجرد فم يأكل، بل يأتي معه قلب وعقل ويدان وقدر من رزق الله.

وفي واقعنا نتخذ جريمة قتل الطفولة صورًا تتجاوز القتل المباشر؛ قد تُقتل روح الطفل بالإهمال، وموهبته بالسخرية، وكرامته بالعنف، وفطرته بتعريضه لمواد تشوّه وعيه. وقد يترك المجتمع أطفال الفقراء بلا تعليم ثم يتساءل من أين جاءت أزماته.

إن حماية الأولاد ليست إبقاء أجسادهم حية فقط، بل حماية معنى الحياة فيهم.

(إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا)؛ خطيئة عظيمة في ميزان الله؛ لأنها عدوان على نفس بريئة، وسوء ظن بالرازق، وهدم للمستقبل تحت دعوى الخوف عليه.

لا تقتربوا: لأن السقوط يبدأ قبل الفعل

قال الله تعالى: (وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا) (الإسراء: ٣٢).

لم يقل القرآن: «لا تزنا» فقط، بل (لَا تَقْرَبُوا)؛ لأن الزنا ليس لحظة منفصلة تهبط على الإنسان فجأة، بل طريق له مداخل وخطوات: نظرة تسترسل، وخيال يُغذى، وخلوة تُستسهل، ورسالة تُخفى، وحدود تتراجع بالتدريج.

إن النفس نادرًا ما تنتقل من الطهر الكامل إلى السقوط الكامل في خطوة واحدة؛ إنها تفاوض ضميرها على أجزاء صغيرة. تقول: مجرد حديث، ثم مجرد لقاء، ثم تزعم أنها ما زالت قادرة على التوقف. وكل خطوة تطفئ شيئًا من حساسية القلب، حتى يصبح ما كان مستحيلًا ممكنًا، ثم يصبح الممكن واقعًا.

ولهذا يحمي القرآن الإنسان قبل الجريمة، لا بعدها فقط. إن بناء الحدود ليس سوء ظن بالنفس، بل معرفة حكيمة بضعفها. ومن ظن أنه أقوى من الفتنة فقد فتح لها الباب من جهة غروره.

(إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً)؛ والفاحشة ما تجاوز الحد في القبح. ليست القضية رغبةً جسدية فحسب؛ فالزنا يعتدي على الثقة، والأنساب، والبيوت، والطمأنينة النفسية، ويحول الإنسان من ذات مكرمة إلى جسد للاستهلاك.

(وَسَاءَ سَبِيلًا)؛ لم يقل: ساء فعلاً فقط، بل ساء طريقًا؛ لأن له امتدادًا وعواقب. تبدأ اللذة قصيرة، ثم يمضي الطريق إلى كذب وخيانة وندم وبيوت مهدمة وقلوب لا تعود كما كانت.

وفي ثقافة تسوق الجسد كسلعة، وتسمي تفكيك الحدود حريةً مطلقة، يعيد القرآن تعريف الحرية: الحر ليس من يعجز عن قول «لا» لرغبته، بل من يملك نفسه حين تشتعل. والاستقامة ليست موتًا للعاطفة، بل صيانتها من أن تتحول إلى قوة هدم، وتوجيهها إلى ميثاق الزواج حيث يلتقي الحب بالمسؤولية.

حرمة الدم: حين يكون الإنسان عالمًا كاملاً

قال الله تعالى: (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا) (الإسراء: ٣٣).

بعد حماية النسل من الفاحشة، يحمي القرآن الحياة نفسها: (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ). لم يقل: النفس الغنية أو القوية أو التي تنتمي إليكم؛ بل النفس التي منحها الله حرمتها. قيمة الدم لا يصنعها العرق، ولا المذهب، ولا الجنسية، ولا الموقع السياسي؛ إنها سابقة على تصنيفات البشر.

كل نفس عالم من الذكريات والآمال والعلاقات. حين يُقتل إنسان لا يسقط جسد فحسب؛ تنطفئ عين كانت ترى العالم بطريقة لن تتكرر، وينكسر قلب أم أو زوجة أو ولد، وتُقطع احتمالات خير كان يمكن أن تكون.

(إِلَّا بِالْحَقِّ)؛ ليس الغضب حقًا، ولا العصبية حقًا، ولا الشائعة حقًا، ولا اختلاف الرأي حقًا. الدماء لا تستباح بالظنون ولا بالحشود المنفعلة، وإنما ضمن حكم شرعي وقضاء معتبر، لا بفوضى الأفراد وانتقام الجماعات.

ثم ينصف القرآن المقتول ظلمًا: (فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا)؛ أعطاه حق المطالبة بالقصاص أو ما شرع الله، فلم يطالبه أن يتنازل قسرًا باسم التسامح، ولم يترك دمه يضيع تحت شعارات المصالحة. الرحمة التي تهدر حق المظلوم ليست رحمة؛ إنها انحياز ناعم إلى الظالم.

لكن القرآن يضبط الألم حتى لا يتحول المظلوم إلى ظالم: (فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ). لا يتجاوز الجاني إلى أهله أو قبيلته، ولا يقتل أكثر من القاتل، ولا يمثل بالجسد، ولا يحول القصاص إلى ثأر ممتد.

هكذا يجمع الإسلام بين نصرة المظلوم ومنع طغيان الانتقام. فالجرح إذا لم يضبطه العدل قد ينجب جرحاً أكبر، والدم إذا استدعى دماء الأبرياء تحولت القضية العادلة إلى سلسلة ظلم.

(إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا)؛ أي إن ولي المقتول مؤيد بالحق الذي جعله الله له، فلا يحتاج أن يتجاوز الحد. ومن أيقن أن القانون العادل ينصره لم يحتج أن يصنع عدالته بيده.

وفي هذه الجملة رسالة للدول: حين تعجز المؤسسات عن إنصاف المظلوم، تدفع الناس نحو الثأر. القضاء العادل لا يحفظ الحقوق وحدها؛ إنه يمنع الألم من التحول إلى حرب اجتماعية.

مال اليتيم: امتحان القوة حين يغيب الرقيب

قال الله تعالى: (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا) (الإسراء: ٣٤).

مرة أخرى يقول القرآن: (لَا تَقْرَبُوا)؛ لأن الاعتداء على المال يبدأ بتبرير صغير: سأقترض ثم أعيد، سأستعمل جزءاً لا يضره، أنا الذي أُرعاها وأستحق. ثم تتسع الفتحة في جدار الأمانة حتى يضيع المال.

اليتيم ضعيف لا يملك أبًا يدافع عن حقه؛ ولهذا يصبح ماله مقياسًا لنزاهة المجتمع. فالإنسان قد يكون أمينًا أمام القوي خوفًا منه، لكن أمانته مع الضعيف تكشف خوفه من الله.

ولم يمنع القرآن القرب مطلقًا، بل قال: **(إِلَّا بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ)**؛ أي بما يصلحه وينميه ويحفظه. لم يقل: **«بالتّي هي حسنة»**، بل بالأحسن؛ لأن مال الضعيف يحتاج إلى أعلى درجات العناية، لا إلى الحد الأدنى من السلامة.

(حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ)؛ فالوصاية ليست استيلاءً دائمًا. هي أمانة مؤقتة تنتهي حين يكتمل رشدُه وقدرته. وكل سلطة راشدة تعرف حدودها وموعد انتهائها؛ أما السلطة الفاسدة فتتعلق بضعف من ترعاهم كي تبقى وصيةً عليهم.

ثم ينتقل من أمانة المال إلى أمانة الكلمة: **(وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ)**. فالمجتمع لا يبنى بالحجارة فقط، بل بالثقة؛ والعهد هو الجسر الذي يستطيع الناس أن يعبروا عليه إلى المستقبل مطمئنين.

الزواج عهد، والوظيفة عهد، والمنصب عهد، والبيع عهد، والكلمة التي تمنحها لطفل ينتظرك عهد. وكلما كثرت الوعود الكاذبة، ارتفعت كلفة الحياة؛ لأن الناس يضطرون إلى إحاطة كل تعامل بسياج من الشك.

(إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا)؛ كأن العهد نفسه سيُستدعى ويسأل صاحبه: ماذا فعلت بي؟ رفعته على لسانك ثم أسقطته عند أول مصلحة؟ جعلتني طريقًا إلى ثقة الناس ثم خنتهم بعد أن عبروا إليك؟

وقد يكون الإنسان مسؤولاً عن العهد، وقد يُجسّد العهد يوم القيامة شاهداً عليه؛ وفي الحالين ترتجف الكلمة في الضمير قبل أن تخرج: فليست الوعود هواءً يذوب، بل ديوناً أخلاقية مكتوبة.

المكيال الصغير الذي يزن حضارة كاملة

قال الله تعالى: (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) (الإسراء: ٣٥).

من المسجد الأقصى إلى ميزان البائع في السوق تمتد عناية الوحي. فلا انفصال في الإسلام بين قداسة المحراب ونزاهة المعاملة؛ ومن خشع في صلاته ثم غش في ميزانه، فقد فهم من الدين مظهره ولم يدخل نظامه الأخلاقي.

(وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ)؛ أدوا للناس حقوقهم كاملة. والغش ليس فقط أن تنقص وزن سلعة؛ قد تنقص أجر العامل، أو وقت الوظيفة، أو جودة المنتج، أو المعلومة التي يحتاجها المشتري لاتخاذ قرار صحيح.

وفي العصر الرقمي ظهرت موازين جديدة: خوارزمية تُظهر وتخفي، ومنصة تجمع البيانات، وشركة تبيع الوهم بإعلان مضلل، وصانع محتوى يقتطع الكلام ليغيّر معناه. وكل ذلك يدخل في سؤال الميزان: هل أعطيت الناس الحقيقة كاملة، أم أنقصتها لتحصل على ربح زائد؟

(وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ)؛ فالعدل يحتاج إلى ميزان مستقيم، لا إلى مزاج يتغير باختلاف الأشخاص. لا تجعل ما تقبله من صديقك جريمة إذا فعله خصمك، ولا تجعل خطأ جماعتك اجتهاذاً وخطأ غيرها خيانة.

القسطاس المستقيم لا يميل مع المحبة والبغضاء. ولعل أصعب العدل أن تستخدم المعيار نفسه حين تتبدل الأسماء.

(ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)؛ أي خير في ذاته، وأحسن عاقبةً ومآلاً. قد يبدو الغش ربحاً سريعاً، لكن العدل يبني الثقة، والثقة رأس مال الحضارات. وحين تنهار الثقة، لا يكفي المال لإصلاح ما فسد؛ لأن كل يد تخشى اليد الأخرى، وكل عقد يحتاج إلى حارس.

الأمانة قد تنقص ربحاً عابراً، لكنها تزيد قيمة الإنسان، وتبني سوقاً يمكن للحياة أن تستقر فيه.

لا تجعل أذنك طريقاً إلى الوهم

قال الله تعالى: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) (الإسراء: ٣٦).

هذه آية العقل الأخلاقي. (وَلَا تَقْفُ)؛ أي لا تتبع ولا تقل ما ليس لك به علم. لا تمش خلف الظن، ولا تجعل الشائعة قائداً، ولا تبني حكماً على نصف مشهد.

ما أبلغ حاجتنا إليها في عصرٍ أصبحت فيه الأكاذيب أسرع من التحقق، وصار الإنسان يستطيع أن يهدم سمعةً بلمسة إصبع، ثم يمضي إلى طعامه كأنه لم يشارك في اغتيال معنوي!

قد يقول: أنا لم أصنع الخبر، إنما نقلته. لكن الآية لا تسأل فقط: من أنشأ الكذب؟ بل تمنعك أن تقفو ما لا تعلم. الناقل ليس جداراً مرّ عليه الصوت بلا إرادة؛ إنه حلقة اختارت أن تمنح الشائعة قدمين جديدتين.

(إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ)؛ هذه منافذ المعرفة: ما تسمع، وما ترى، وما تعقله وتعتقد. لم يجعل القرآن الإنسان مسؤولاً عن لسانه فقط، بل عن طريقة تكوين قناعاته. لأن الظلم في الحكم يسبق الظلم في الفعل، والتصور الفاسد يصنع موقفاً فاسداً.

وقدّم السمع؛ لأن أكثر ما يعرفه الإنسان يأتيه من أخبار الآخرين، ثم البصر، ثم الفؤاد الذي يعالج ما تلقاه. فإذا فسد المصدر أو أهمل التحقق، دخل الوهم إلى القلب في ثياب الحقيقة.

(كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا)؛ أشار إلى هذه الجوارح بـ** (أُولَئِكَ)**، وهي إشارة تستعمل للعقلاء، كأن السمع والبصر والفؤاد شهود أحياء سيقفون للمساءلة. أذنك ليست ممراً مباحاً لكل باطل، وعينك ليست نافذة بلا حرمة، وقلبك ليس مستودعاً تلقي فيه ما تشاء ثم تزعم أنك غير مسؤول.

والفؤاد مسؤول عن التحيز أيضاً: لماذا صدقت التهمة سريعاً؟ ألقوة الدليل، أم لأنك كنت تتمنى أن تكون صحيحة في خصمك؟ أحياناً لا يخدعنا الخبر لأنه متقن، بل لأن الهوى فتح له الباب.

إن الاستخلاف يحتاج إلى إنسان معرفي أمين: يتثبت قبل أن يحكم، ويفرق بين ما يعلم وما يظن، ولا يخجل أن يقول: لا أدري. فالاعتراف بالجهل لحظة صدق، أما ملء الفراغ بالوهم فخيانة للعقل.

لا تَمْشِ فَوْقَ الْأَرْضِ كَأَنَّكَ أَكْبَرُ مِنْهَا

قال الله تعالى: (وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا) (الإسراء: ٣٧).

بعد ضبط السمع والبصر والفؤاد، يضبط القرآن هيئة الجسد في الطريق. فالكبر الباطن يتسرب إلى المشية؛ إلى رفع الرأس احتقارًا، وإيقاع الخطوة استعراضًا، وطريقة الدخول التي تطلب من المكان أن يشعر بصاحبها.

(وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا)؛ والمرح هنا البطر والخيلاء، لا الفرح المشروع. ليس الإسلام عدوًا للبهجة، ولكنه عدو للفرح الذي يتغذى على استصغار الآخرين.

ثم يعيد القرآن المتكبر إلى حجمه بحجتين من الأرض والسماء: (إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ) بوطء قدميك، (وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا) بامتداد قامتك. أنت بين أرضٍ أعجز من أن تشقها، وجبالٍ أعجز من أن تطاولها؛ فمن أين جاءك هذا الانتفاخ؟

الجسد الذي يختال اليوم ستحملة الأيدي غدًا، والقدم التي تضرب الأرض كبرًا سيغطيها ترابها. لا يريد القرآن إذلال الإنسان، بل تحريره من وهم الضخامة. فالتواضع ليس إنكارًا لقيمتك، وإنما معرفة دقيقة بحجمك: أنت مكرّم بعبوديتك، محدود بخلقك، محتاج في كل نفس إلى ربك.

وفي العالم المعاصر لم تعد المشية في الأرض بالجسد وحده؛ هناك مشية رقمية كذلك: استعراض دائم للنجاح، وبناء صورة توحى بالكمال، وقياس

للقيمة بعدد المتابعين. قد يجلس الإنسان في غرفته متواضع الهيئة، وهو يمشي في فضاء الناس مرحًا بصورته المصنوعة.

والدواء واحد: تذكر الأرض التي لن تخرقها، والجبل الذي لن تبلغه، والرب الذي يعلم حقيقتك خلف كل ما تعرضه.

منظومة واحدة لا أخلاق مبعثرة

قال الله تعالى: (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا) (الإسراء: ٣٨).

بعد هذه الوصايا المتتابة، يجمعها القرآن في ميزان واحد. ليس البر بالوالدين شأنًا عائليًا منفصلًا عن المال، ولا العفة منفصلةً عن حرمة الدم، ولا أمانة المعرفة منفصلةً عن التواضع.

كلها أجزاء من بنية الإنسان الذي يريده القرآن.

قد يكون المرء بارًا بأبويه لكنه يأكل مال اليتيم، أو دقيقًا في عبادته لكنه ينقل الأخبار بلا تثبت، أو كريماً لكنه متكبر، أو عفيفًا لكنه ظالم في خصومته. والقرآن لا يقبل أن يختار الإنسان من الأخلاق ما يوافق طبعه، ثم يجعل التزامه الجزئي ستارًا لما أهمل.

(عِنْدَ رَبِّكَ)؛ فالميزان ليس ما كرهه المجتمع اليوم أو أحبه غدًا، بل ما كان عند الله مكروهًا. وتتغير أذواق البشر حتى يُعاد تقديم الرذيلة في صورة حق، لكن تغيير العبوة لا يحول السم إلى دواء.

وفي إضافة الرب إلى النبي ﷺ - (رَبِّكَ) - تثبيتٌ له ولمن يتبع الوحي: إذا اضطربت المقاييس حولك، فلك ميزان لا يضطرب. لا تحتاج أن تستفتي كل موجة ثقافية عن معنى الكرامة والخير؛ فقد بين ربك ما يحب وما يكره.

الحكمة: أن ترى الصلة بين التوحيد والتفاصيل

قال الله تعالى: (ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا) (الإسراء: ٣٩).

يسمي الله هذه المنظومة حكمة. والحكمة ليست أقوالاً غامضة يتداولها المتفلسفون، بل أن تضع كل شيء في موضعه: العبادة لله، والإحسان للوالدين، والحق لأهله، والمال في حد الاعتدال، والحياة في موضع الحرمة، والشهوة في موضعها المشروع، والمعلومة في ميزان التثبت، والنفس في مقام التواضع.

إن الحكمة هي التوحيد حين ينزل إلى التفاصيل.

ثم تُختتم الوصايا بما بدأت به: (وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ). بدأ المقطع في الآية الثانية والعشرين بالنهي عن الشرك، وعاد في الآية التاسعة والثلاثين إلى النهي نفسه؛ فكان التوحيد سور يحيط بمدينة الأخلاق كلها.

وهذا البناء الدائري ذرة بلاغية ومنهجية: التوحيد هو البداية والنهاية، والأخلاق هي المسافة التي تثبت صدقهما. فمن وحد الله بلسانه ثم عبد المال في معاملاته، أو عبد السلطة في مواقفه، أو عبد شهوته في خلواته، لم يحقق من التوحيد أثره الكامل في النفس.

في البداية قال: (فَتَقَعَدْ مَذْمُومًا مَخْذُولًا)، وهنا قال: (فَتَقُلَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَذْهُورًا). في الأولى قعود الذل في الدنيا، وفي الثانية إلقاء الخزي في الآخرة. فمن أشرك بالله خذلته معبوداته هنا، ثم تبرأت منه هناك.

خلاصة دستور الاستخلاف

ليست هذه الوصايا قائمة أخلاقية متناثرة، بل خطة لبناء مجتمع قادر على حمل الأمانة:

- يبدأ بالتوحيد؛ ليحرر الإنسان من عبودية الخلق.
- ثم يحفظ الوالدين؛ ليبني الوفاء في أصل العلاقات.
- ويؤدي حقوق القريب والمسكين والغريب؛ ليقم التكافل.
- ويضبط الإنفاق؛ ليحمي المال من البخل والعبث.
- ويحفظ الطفل؛ ليصون المستقبل.
- ويحرم الزنا؛ ليحمي الأسرة والأنساب.
- ويحرم القتل؛ ليصون الحياة.
- ويحفظ مال اليتيم؛ ليختبر الأمانة مع الضعيف.
- ويوفي بالعهد والميزان؛ ليبني الثقة.
- ويتثبت من المعرفة؛ ليحمي الوعي.
- وينهى عن الكبر؛ ليمنع القوة من التحول إلى استعلاء.

هكذا يصنع القرآن إنسان التمكين قبل أن يمنحه التمكين. فالسلطان في يد نفس لم تترب لا يصنع خلافة راشدة، بل يوسع مساحة أهوائها. والقوة لا تعالج العيوب الباطنة؛ إنها تكبرها وتمنحها أدوات التنفيذ.

إن من لا يحسن مخاطبة والديه عند الضعف قد لا يحسن استعمال سلطته في الضعفاء. ومن يغش في ميزان صغير لن تنقذه الشعارات إذا وُضع في يده ميزان دولة. ومن يتبع الشائعة في مجلسه قد يبني قرارًا عامًا على الوهم حين يمتلك المنصب. ومن يمشي في الأرض مرحًا بلا قدرة، سيكون أشد علوًا إذا مكن.

ولهذا يسبق القرآنُ الدولةَ بالإنسان، ويسبق النصرَ بالقيمة، ويسبق الاستخلافَ بالعبودية.

لكن النفس التي تسمع هذه الحكمة قد تجادل، والمجتمع الذي يَألف أوهامه قد يقاوم الوحي. وهنا تنتقل السورة إلى تفكيك الشرك، وكشف تناقض المكذبين، وبيان أن الكون كله يسبح لله وإن عجز الإنسان عن سماع تسبيحه:

(أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا...).

الفصل الرابع

حِينَ يَضِيقُ الْقَلْبُ عَنِ الْحَقِّ وَيَتَّسِعُ لِلَّوْهِمِ

تفكيك الشرك، وتسبيح الوجود، وقيامة الإنسان من ترابه

قال الله تعالى: (أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا) (الإسراء: ٤٠).

بعد أن ختمت الوصايا بالنهي عن اتخاذ إله مع الله، عادت السورة لتواجه أحد أشكال الشرك التي كانت تسكن التصور الجاهلي: زعمهم أن الملائكة بنات الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

ولا يكتفي القرآن بنفي الدعوى، بل يكشف تناقضها الأخلاقي والنفسي: (أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ)؛ أخصكم بما تزعمون أنه الأفضل عندكم، (وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا)، مع أنكم كنتم تكرهون نسبة البنات إلى أنفسكم؟ كيف تنسبون إلى الله ما تستكفون منه لأنفسكم؟

ليس الاستفهام طلباً للجواب، بل هدمٌ للدعوى من داخل منطق أصحابها. فالعقيدة الباطلة كثيراً ما تسقط إذا ألزم صاحبها بمعاييرها نفسها. إن المشكلة لم تكن نقص الدليل وحده، بل اختلال الضمير: ميزان لأنفسهم، وميزان آخر حين يتحدثون عن الله.

(إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا)؛ عظيماً في افتراءه، وعظيماً في شناعته، وعظيماً في جرأته على مقام الألوهية. فليست الكلمات كلها سواء؛ هناك كلمة تمرّ على اللسان خفيفةً، لكنها تقع في ميزان الحقيقة كجبل.

وفي عصرنا يُقال للإنسان: لا تهتم بالكلمات، فهي مجرد تعبير. لكن القرآن يربي الضمير على مهابة القول؛ لأن الكلمة قد تشوه معرفة الله، أو تهدم عرض إنسان، أو تشعل حرباً، أو تزرع في جيل كامل تصوراً فاسداً.

والعجيب أن الإنسان قد يتخرج من خطأ صغير في رقم أو اسم، ثم يتكلم عن الله بغير علم، وينسب إلى دينه ما يوافق هواه، كأن مقام الله أهون من مقام المخلوقين! إن تعظيم الله يبدأ من تعظيم القول عنه: فلا نصفه إلا بما وصف به نفسه، ولا نقيسه على خلقه، ولا ننسب إليه ما لا يليق بجلاله؛ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

الوحي ينوع الطريق إلى قلب يرفض الوصول

قال الله تعالى: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا) (الإسراء: ٤١).

(صَرَّفْنَا)؛ أي نوّعنا البيان، ورددنا المعاني في صور وأساليب متعددة: مرة في قصة، ومرة في مثل، ومرة في مشهد كوني، ومرة في وعد، ومرة في وعيد، ومرة في حوار يهز العقل، ومرة في نداء يوقظ القلب.

وهذه من رحمة القرآن بالإنسان؛ فالنفوس ليست باباً واحداً. ما يفتح عقلاً بالدليل قد يفتح قلباً آخر بالقصة، وما يحرك إنساناً بالخوف قد يوقظ غيره بالرجاء. والمعنى الواحد يعود بثياب بيانية مختلفة، لا لأن الحقيقة ناقصة، بل لأن حجب النفوس متعددة.

(لِيَذَكَّرُوا)؛ فالمقصود ليس أن يعجبوا بالبيان فحسب، بل أن يتذكروا. والذكر في جوهره عودة إلى حقيقة تعرفها الفطرة ثم غطاها الهوى.

والغفلة. القرآن لا يضع في النفس إنسانيتها من العدم؛ إنه يزيح الركام عنها لتسمع صوتها الأول.

لكن المفارقة المؤلمة: (وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا). الدواء واحد، لكن القلوب تختلف في استقبله. ينزل الماء على الأرض الطيبة فتخضر، وعلى الصخرة فيمر فوقها ولا يدخلها. والنور الذي يكشف الطريق للمبصر يؤلم عينًا اعتادت الظلام.

ليس كل نفور من الحق سببه غموض الحق. أحيانًا يكون واضحًا إلى حدٍّ يهدد المصالح التي أقام الإنسان عليها حياته. إنه لا يرفض الدليل لأنه ضعيف، بل لأنه قوي، ولأنه إذا اعترف به وجب أن يتغير.

فالطاغية ينفر من آيات العدل لا لأنه لم يفهمها، بل لأنه فهم أنها تنزع القداسة عن سلطانه. والمحتكر ينفر من حديث الحقوق لأنه يرى فيه يدًا تمتد إلى امتيازاته. وصاحب الشهوة ينفر من الحدود لأنها توقظه من الوهم الجميل الذي صنعه حول نزواته.

وهنا قاعدة نفسية دقيقة: إذا أحب الإنسان مرضه، رأى الطبيب عدوًّا. وإذا بنى هويته على خطأ، شعر أن تصحيح الفكرة محاولةٌ لقتله لا لإنقاذه. ولذلك يحتاج طالب الحق إلى شجاعة تتجاوز الذكاء: شجاعة أن يسمح للحقيقة بأن تغيّره.

لو تعددت الآلهة لابتغى بعضها إلى بعض سبيلاً

قال الله تعالى: (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ۖ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا) (الإسراء: ٤٢-٤٣).

ينقل القرآن دعوى الشرك إلى ميدان العقل: لو كان مع الله آلهة كما يزعمون، لطلبت تلك الآلهة سبيلاً إلى ذي العرش؛ إما تقرباً إليه وخضوعاً لسلطانه، فيثبت أنها عباد لا آلهة، وإما منازعةً له في الملك - على معنى ما يقتضيه تعدد المتصرفين - فيفسد نظام الوجود. وفي كلا الوجهين تنهار دعوى الشرك.

إن وحدة الكون تشير إلى وحدة المدبر: قوانين تتعاقب من الذرة إلى المجرة، ونظام لا تظهر فيه حدود ممالك متصارعة، ولا مناطق نفوذ لآلهة متنازعة. الوجود كله صادر عن إرادة واحدة، ممسوك بقدره واحدة، جارٍ بحكمة واحدة.

ويأمر الله نبيه ﷺ أن يقول: (كَمَا يَقُولُونَ)؛ ففيها مسافة بين الحقيقة وبين دعواهم. الآلهة لا توجد لأنهم سموها، والوهم لا يصبح واقعاً بكثرة ترديده. يستطيع الإنسان أن يمنح الباطل اسماً مهيباً، لكنه لا يستطيع أن يمنحه حقيقة.

ثم يعود التسبيح الذي افتتحت به السورة: (سُبْحَانَهُ). افتتحت رحلة الإسراء بتنزيه الله عن العجز، وهنا يُنزّه عن الشرك. فكأن التسبيح سور يحفظ التصور من كل ما لا يليق بالله.

(وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُفُؤُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا)؛ تعالٍ حقيقي يليق بجلاله، لا يشبه علو المخلوقين ولا تحده جهات خلقه. وهو علو كمال وقهر وجلال، منزّه عن أوهام التجسيم ومقاييس المادة؛ فالله سبحانه ليس كمثله شيء.

وكلما عظم الله في قلبك، صغرت الأصنام. لا تحتاج أن تكسر كل صنم نفسي واحدًا بعد آخر إذا أشرق التوحيد كاملاً؛ فإن نور الشمس لا يطارده الظلمات في زوايا الغرفة، بل يملأ المكان فتتراجع كلها.

الكون كله في صلاةٍ لا نفقه لغتها

قال الله تعالى: (تَسْبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) (الإسراء: ٤٤).

فجأةً تتسع الصورة حتى لا يبقى في المشهد إلا كونٌ مسبح. السماوات السبع، والأرض، ومن فيهن، ثم التعميم الذي لا يترك شيئاً خارج الجوقة الكبرى: (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ).

الجبل الذي تراه ساكنًا له عبوديته، والبحر الذي تسمع هديره له تسبيحه، والشجرة التي تهتز في الريح ليست مادةً صامتةً كما يتخيل الوعي الغافل. الوجود في الرؤية القرآنية ليس مستودع أشياء باردة، بل محراب هائل، لكل مخلوق فيه طريقته في الشهادة لخالقه.

(يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)؛ جمع التسبيح بين التنزيه والحمد. تنزهه المخلوقات عن النقص، وتحمده على الكمال والنعمة. وكأن وجود كل شيء يقول بطريقته: ما خلقتني عبثاً، وما أقامني سواك، وما في من جمال ونظام فمن فيض حكمتك.

لكن الإنسان لا يسمع هذه السمفونية الكونية: (وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ). لم يقل: لا يسبحون لأنكم لا تفهمون، بل أثبت تسبيحهم ونفى عنكم فقهه. وهذه تربية للعقل على التواضع: ما تعجز عن إدراكه ليس بالضرورة معدوماً. حدود أدواتك ليست حدود الوجود.

لقد اكتشف الإنسان أصواتاً لا تسمعها أذنه، وألواناً لا تراها عينه، وموجات تحيط به ولا يشعر بها؛ فلماذا يجعل نطاق إدراكه الضيق حكماً على كل حقيقة؟

والأشد إدهاشاً أن الإنسان قد يرفع صوته بإنكار الله، بينما كل خلية في جسده تعمل وفق القانون الذي أودعه الله فيها، وكل نفس يدخل صدره شاهد على حاجته، وكل ذرة في كيانه منخرطة في تسبيح الوجود. يكفر بلسانه، ويطيعه تكوينه؛ يتمرّد وعيه، بينما لا يستطيع قلبه أن يتوقف عن الخفقان إلا بإذن خالقه.

إنك حين تسبح لا تبدأ صوتاً غريباً عن الكون؛ أنت تستعيد موضعك في النشيد الأكبر. وحين تغفل لا يصمت الوجود، بل تصبح أنت النعمة الناشئة الوحيدة في محيطٍ ساجد.

ثم تأتي الخاتمة المدهشة: (إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا). كان المتوقع بعد ذكر تسبيح الكون وغفلة الإنسان أن يأتي وعيد عاجل، لكن الآية تفتح باب الحلم

والمغفرة. كيف يسمع الله افتراء البشر عليه، ويرى الكون كله يشهد بوحدايته، ثم يمهلهم؟ لأنه حلیم لا يعاجل بالعقوبة، غفور لمن رجع.

لولا حلمه لما بقي فوق الأرض من يقول كلمة الشرك، ولولا مغفرته لما وجد التائب باباً يعود منه.

حين يصنع الإعراضُ حجاباً لا تراه العين

قال الله تعالى: (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا) ٥٠ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا) (الإسراء: ٤٥-٤٦).

ثمة حجب لا تراها الأبصار، لكنها أشد من الجدران. يجلس إنسان قريباً من قارئ القرآن، تصل الحروف إلى أذنه واضحة، ثم لا يبلغ المعنى قلبه. لم تمنعه المسافة، بل منعه موقفه الداخلي.

(حِجَابًا مَسْتُورًا)؛ حجاباً ساتراً، أو محجوباً عن الأبصار؛ فهو موجود بأثره، غير مرئي في ذاته. وهذه صورة بليغة للحواجز النفسية: الإنسان لا يرى كبريائه حين يحجبه، ولا يلمس تعصبه بيده، لكنه يفسر عبره كل ما يسمع.

قد يتصور المعرض أنه يقرأ القرآن، بينما هو يقرأ خوفه منه، أو خصومته معه، أو الصورة المشوهة التي سبق أن صنعها عنه. الحروف أمامه، لكن بينه وبينها تاريخاً من المكابرة يمنع اللقاء الحقيقي.

(وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ)؛ والأكنة أغشية تحول دون الفقه. وهذا الجعل عقوبة توافق اختيارهم وإصرارهم؛ لما أعرضوا عن النور وخاصموه، تركهم الله لما اختاروا وختمت الممانعة على قلوبهم.

فالإنسان لا يفقد البصيرة فجأة؛ يبدأ بإعراض صغير، ثم يكرره حتى يتحول الموقف إلى طبع، والطبع إلى غطاء. وكل مرة يرى فيها الحق ثم يؤجل الاستجابة، يصبح الرجوع أصعب؛ لأن القلب يتعلم مقاومة النور كما تتعلم العين الإقامة في الظلام.

(وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا)؛ أي ثقلاً يمنع السماع النافع. أذنهم سليمة من جهة الخلق، لكنها لا تؤدي وظيفتها الهداية. فليس السماع وصول الصوت إلى الأذن، بل وصول الدلالة إلى موضع القبول.

ثم تكشف الآية أصل نفورهم: (وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا). كانوا لا ينفرون من الحديث الديني كله، بل من التوحيد الخالص الذي يسقط الوسطاء والأنداد. يستطيع الباطل أحياناً أن يتعايش مع تدين يمنحه مكاناً، لكنه لا يحتمل توحيداً يعلن أن السلطان المطلق لله وحده.

والتوحيد لا يزعج الأصنام الحجرية فقط؛ إنه يزعج كل من بنى نفوذه على أن يكون واسطة تتحكم في ضمائر الناس، وكل سلطة تريد طاعة بلا قيد، وكل هوى يريد أن يصبح مرجعاً.

(وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ)؛ صورة حسية للإعراض الكامل. لم يبتعدوا بوجوه مترددة، بل أعطوا الحقيقة ظهورهم؛ لأن من لا يملك رداً على النور قد يكتفي بالفرار منه.

الله يسمع ما وراء الاستماع

قال الله تعالى: (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا) ○ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا) (الإسراء: ٤٧-٤٨).

ليس كل من استمع طالبًا للهداية. قد يقترب الإنسان من الكلام ليجمع عليه شبهة، أو يقطع منه ما يشوهه، أو يبحث عن كلمة يستخدمها ضد صاحبها. ولهذا قال: (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ)؛ أعلم بسبب استماعهم وهيئته وغايته.

إن الله لا يرى صورة الفعل وحدها، بل يرى الباعث الذي تحرك به. قد يجلس اثنان في مجلس القرآن؛ أحدهما يفتح قلبه، والآخر يفتح دفتن الاتهام. يتشابهان في السكون الخارجي، وبينهما عند الله مسافة النية كلها.

(وَإِذْ هُمْ نَجْوَى)؛ يتسارّون، يظنون أن خفض الصوت يخرج كلماتهم من سلطان العلم الإلهي. وما من نجوى تعقد لتشويه حق أو إيذاء بريء إلا ويكون الله عالمًا بها، حاضرًا بعلمه، وإن أغلقت الأبواب ووُضعت الخطط في الظلام.

قالوا: (إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا). وحين يعجز الخصم عن إسقاط الرسالة بالدليل، يحاول إسقاط حاملها بالتهمة.

بدل أن يسألوا: أحق ما جاء به؟ قالوا: مسحور. إنها حيلة قديمة تتجدد: شخصنة الفكرة بدل مناقشتها، وتشويه صاحب الحق لتفادي مواجهة الحق.

وقد تناقضت أوصافهم للنبي ﷺ؛ مرة ساحر، ومرة مسحور، ومرة شاعر، ومرة كاهن. وهذا الاضطراب علامة العجز: من عرف حقيقة الشيء وصفه وصفًا متماسكًا، أما من أراد رفضه بأي ثمن فينتقل من تهمة إلى أخرى دون أن يشعر بتناقضه.

(انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ)؛ تعجيب من حالهم، وتسليية للنبي ﷺ: لست محتاجًا إلى أن تحمل اضطراب أقوالهم في قلبك؛ انظر إليها بوصفها دليلًا على ضياعهم، لا حكمًا على حقيقتك.

(فَضَّلُوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا)؛ لم يضلوا عن الجواب فقط، بل فقدوا القدرة على الوصول إلى طريق متماسك. والكذب يعاقب صاحبه بهذا التيه؛ لأن كل كذبة تحتاج إلى رواية تسندها، ثم تتعارض الروايات، فلا يجد الكاذب سبيلًا يخرج به من المتاهة التي صنعها.

استبعاد القيامة: حين يقيس التراب قدرة الخالق بعجزه

قال الله تعالى: (وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ○ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ○ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا) (الإسراء: ٤٩-٥١).

تنتقل السورة إلى شبهة البعث: كيف نعود بعد أن نصير عظامًا باليةً ورفاتًا متفتتًا؟ رأوا التحلل، ولم يروا القدرة التي أنشأت المادة والحياة أول مرة.

(إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا)؛ يكرر الاستفهام صورة استبعادهم، كأنهم يقولون: بعد كل هذا الفناء، أيمن أن نعود؟ وهم يقيسون فعل الله على فعل الإنسان؛

لأن الإنسان يستطيع أن يصنع من مادة موجودة، لكنه لا يستطيع أن يرد الحياة إلى الرفات، فظن أن عجزه قانون على الخالق.

وهذه جذور كثير من الإنكار: أن يتضخم النموذج البشري حتى يصبح مقياساً لله. فما لم يستطيع الإنسان تفسيره بأدواته نفاه، وما لم يقع تحت تجربته المحدودة استبعده. لكنه ينسى أن العقل أداة لفهم الدليل، لا جدار يحصر قدرة الله داخله.

يأتي الجواب قوياً متجاوزاً أصل اعتراضهم: **(قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا)**. لا تكونوا عظاماً رقيقةً ورفاتاً متفتتاً فقط؛ كونوا - في تقديركم - أشد المواد امتناعاً من الحياة: حجارة أو حديدًا.

(أَوْ خُلُقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ)؛ تخيلوا شيئاً أعظم وأبعد عن قبول الحياة، شيئاً يتضخم في صدوركم حتى تظنوه مستحيل الإعادة؛ فإن قدرة الله لا تتناقض أمام صلابة المادة، ولا تتعب كلما تعقدت الصورة.

إن الأمر الصعب والسهل وصفان يتعلقان بقدرة المخلوق؛ أما قدرة الله فنافذة لا يعجزها شيء. فالذي يقول للشيء كن فيكون لا يحتاج في بعث العظام إلى جهد أكبر من إنبات زهرة.

(فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا)؛ وهنا يرد القرآن بالحجة التي لا يستطيعون إنكارها: **(قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)**. وجودكم الأول هو الدليل المقيم في أجسادكم على إمكان وجودكم الثاني. من خلق بلا مثال سابق، كيف يعجز عن الإعادة ومعالِم الخلق معلومة عنده لا يغيب منها شيء؟

إن كل إنسان يمشي على الأرض يحمل برهان بعثه معه. كان عدمًا، ثم خلية لا تكاد ترى، ثم صار جسدًا وعقلًا وذاكرةً ولغة. من الذي اجتاز به كل هذه المسافات الوجودية؟ وكيف يستبعد على تلك القدرة أن تعيده؟

لكنهم لا يستقبلون الحجة بخشوع، بل بسخرية: **(فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ)**؛ يحركون رؤوسهم استهزاءً وتعجبًا.

عندما يعجز اللسان عن نقض البرهان، قد يستعين الجسد بالإيماءة الساخرة. والسخرية كثيرًا ما تكون ستارًا يخفي خوفًا من حقيقة لا يريد صاحبها أن يواجهها.

(وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ؟) ليس سؤال طالب معرفة، بل سؤال المستهزئ الذي يظن أن تأخر الموعد دليل إلغائه. والإنسان العجول - الذي وصفته السورة من قبل - يظن أن ما لم يقع الآن لن يقع، كأن الزمن كله هو اللحظة التي يعيشها.

(قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا). وكل آتٍ قريب، وكل عمر مهما امتد قصير إذا قيس بالأبد. والموت هو القيامة الشخصية التي تغلق زمن العمل وتفتح زمن الانتظار؛ وقد يكون بين الإنسان وبينها نبضة لا يعلم أنها الأخيرة.

يوم يدعوكم فتنهضون بحمده

قال الله تعالى: (يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا) (الإسراء: ٥٢).

يا لعظمة المشهد! ينادي الله الخلائق، فتستجيب الأجساد المتناثرة، وتخرج الأرواح إلى موعدها. لا تتأخر ذرة، ولا يخطئ النداء قبرًا، ولا يحتاج المبعوثون إلى أن يتعلموا طريق الرجوع.

(يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ)؛ بين الدعوة والاستجابة سرعة لا تترك مجالًا للممانعة. في الدنيا دعاهم الله إلى الإيمان فمنحهم إرادةً يمتحنون بها؛ فأعرض من أعرض. أما هناك فالدعوة دعوة تكوين وقهر، فتستجيب لها الخليفة كلها. من رفض أن يأتي إلى الله طائعًا، جاءه محمولًا بسلطان القدرة.

(بِحَمْدِهِ)؛ أي تستجيبون حامدين له، أو بأمره المقرون بحمده، أو بما يظهر من كمال قدرته المستحق للحمد. والكون الذي كان يسبح بحمده في الآية السابقة، ينهض الإنسان فيه أخيرًا فلا يملك أمام انكشاف الحقيقة إلا أن يدخل في الاعتراف العام.

أما الدنيا التي ملأت عيون الناس وصراعاتهم، فتتضاءل في الذاكرة: (وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا). السنوات التي بدت طويلة، والليالي التي ظن الإنسان أنها لن تنتهي، والممالك التي قاتل الناس من أجلها؛ كل ذلك ينكمش أمام أول مشهد من الأبد.

وهذه الآية تعيد ترتيب أحزاننا وطموحاتنا. ليس معناها أن ألم الدنيا وهم؛ فقد يكون الألم شديدًا حقيقياً. لكنها تقول إن حجمه النهائي ليس ما تشعر به وأنت داخله. هناك أوجاع تبدو كأنها الحياة كلها، ثم تمر حتى يتعجب المرء كيف ظن أن لا شيء بعدها.

وكذلك لذات المعصية: تبدو كبيرةً وهي حاضرة، ثم تصغر حين يبقى حسابها ويذهب طعمها. ما أقصر لذةً تترك ندماً طويلاً، وما أقصر بلاءً يعقبه رضوان لا ينتهي!

خلاصة الفصل

بين تسبيح الكون وجدال الإنسان

في هذا المقطع تتقابل صورتان:

كونٌ كامل يسبح بحمد الله، وإنسانٌ يخلق الله الشركاء.
وجودٌ منقاد لسنن خالقه، وقلبٌ ينفر كلما ذكر ربه وحده.
أجساد تشهد نشأتها الأولى بقدرة الله، واللسنة تستبعد النشأة الأخرى.
قرآن يصرف الحجج، ونفوس تحوّل تنوع البيان إلى مزيد من الفرار.

لكن السورة لا تعرض الكفر بوصفه نقصاً في المعلومات وحده؛ إنها تكشف بنيته النفسية: كِبَرٌ يمنع التسليم، ومصلحة تخاف التغيير، وهوى يصنع حجاباً، وسخرية تحاول إخفاء عجزها أمام البرهان.

ومن هنا فإن الطريق إلى اليقين لا يحتاج دليلاً فحسب، بل يحتاج قلباً أُميئاً مع الدليل. فقد تكون الحجة أمام العين، لكن الهوى يقف بينها وبين الفؤاد.

وإذا كان الكون كله يسبح، فإن أول علاج للاضطراب أن يستعيد الإنسان انسجامه مع الوجود: أن ينزّه الله، ويحمده، ويسلم له، ويعلم أن الذي فطره أول مرة لن يترك قصته ناقصة، وأن التراب ليس خاتمة الإنسان، بل محطة بين خلقين.

وبعد أن عالجت السورة علاقة الإنسان بالحقيقة الكبرى، ستعود إلى أدق ميدان نفسي واجتماعي: الكلمة. فالمؤمن الذي يحمل اليقين قد يهدم أثره بغلظة لسانه، والشيطان لا يحتاج دائماً إلى أن يغيّر عقيدتك؛ قد يكفي أن يفسد طريقتك في مخاطبة الناس:

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ...).

الفصل الخامس

مَعْرَكَةُ الْإِنْسَانِ مَعَ الشَّيْطَانِ

حين تبدأ الفتنة من كلمة، وتنتهي باستعباد القلب

قال الله تعالى: (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا) (الإسراء: ٥٣).

بعد أن أمر القرآن بالتي هي أقوم في المنهج، وبالتي هي أحسن في التصرف بمال اليتيم، يأمر هنا بالكلمة التي هي أحسن. كأن السورة تريد من المؤمن ألا يكتفي بصحة الفكرة، بل يبحث لها عن أجمل طريق إلى القلوب.

لم يقل: «يقولوا قولاً حسناً» فقط، بل: (يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)؛ فقد تكون أمامك كلمات كلها صادقة، لكن بعضها أصلح للمقام، وأرفق بالسامع، وأبعد عن إثارة العناد. والمؤمن لا يسأل فقط: هل ما سأقوله حق؟ بل يسأل أيضاً: هل هذه أفضل طريقة لقول الحق؟ وهل أريد أن أهدي الإنسان، أم أن أهزمه؟

إن كثيراً من الخصومات لا تبدأ باختلاف عظيم، بل بكلمة صغيرة أسيء اختيارها، أو نبرة حملت احتقاراً، أو تعليق قيل في لحظة انفعال. ثم يدخل الشيطان من ذلك الشق الرفيع، فيوسعه حتى يصبح جداراً بين قلوبين.

(إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ)؛ والنزغ إدخال الفساد والإغراء بالشر. لم يقل: ينزع فيهم فحسب، بل بينهم؛ لأن الشيطان يحب المسافات التي تنشأ بين

الناس. يزرع سوء الظن في الفراغ بين كلمة قيلت ومعنى فهم، ويجعل كل طرف يفسر الآخر من أسوأ زاوية.

قد يقول لك: لو سكت الآن ظنك الناس ضعيفًا.

ويقول للآخر: إن كلمته إهانة مقصودة.

ثم يجعل الدفاع عن النفس أشد إلحاحًا من حفظ الأخوة، حتى ينسى الطرفان القضية الأولى، ويصبح كل ههما الانتصار لذواتهما.

والشيطان لا يحتاج دائمًا إلى إقناع المؤمن بعقيدة باطلة؛ قد يكفي أن يجعله يقول الحق بطريقة منفرة، أو ينصر العدل بظلم، أو يدافع عن الدين بأخلاق تصد الناس عنه. فيبقى الحق صحيحًا في ذاته، لكن حامله يضع حوله الأشواك.

(إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا). وما أعجب حال الإنسان: يعرف عدوه، ثم يستعير منه لغته! يعرف أن الشيطان يريد تمزيق القلوب، ثم يهديه بلسانه الكلمة التي تفعل ذلك.

والعدو المبين لا يأتيك دائمًا بوجهه الحقيقي؛ قد يأتيك في صورة غيرة على الحق، بينما هو يوقظ غضب النفس. وقد يجعل الانتقام يبدو كرامة، والتشهير يبدو نصيحة، والفضاظة تبدو صراحة.

والعلامة الفاصلة: أن الحق الذي يقودك إليه الله يزيدك عدلاً ورحمةً وتواضعًا، أما «الحق» الذي يزينه الشيطان فيجعلك أكثر افتتانًا بنفسك، وأكثر تعطشًا لإذلال خصمك.

وفي واقع المنصات الحديثة، صارت الكلمة أسرع من نضجها. يكتب الإنسان في لحظة غضب ما يبقى سنوات، ويرد قبل أن يفهم، ويخاطب شخصاً واحداً أمام آلاف المتفرجين؛ فلا يعود هدفه حل الخلاف، بل كسب الجمهور. وهنا تتحول المحادثة إلى ساحة، والإنسان إلى صورة يدافع عنها، والشيطان إلى مخرج خفي يستثمر تصفيق الحاضرين.

إن «التي هي أحسن» ليست ترفاً لغوياً، بل نظام وقاية اجتماعية. كلمة واحدة قد تمنع قطيعة، وتطفئ فتنة، وتحفظ زواجاً، وترد غاضباً إلى رشده. كما أن كلمة واحدة قد تفتح باباً لا تغلقه سنوات الاعتذار.

لا تضع نفسك في مقام الله

قال الله تعالى: (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأْ يَرْحَمَكُمْ أَوْ إِنَّ يَشَأْ يُعَذِّبَكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا) ○ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا) (الإسراء: ٥٤-٥٥).

بعد الأمر بأحسن القول، ترد السورة الإنسان إلى حدوده: (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ). أنت ترى ظاهر الشخص في لحظة، والله يعلم رحلته كلها؛ تعرف زلته، ولا تعرف ما قاومه قبلها؛ ترى صلاحه الظاهر، ولا تعلم ما يخفيه صدره.

ولهذا كان العلم الإلهي أساس العدل، وكان نقص علم الإنسان سبباً يلزمه بالتواضع في أحكامه. كم من إنسان أدانه الناس بخاتمة مشهد لم يروا بدايته! وكم من شخص رفعوه بصورة صالحة، ولم يروا خراب الخفاء!

(إِنْ يَشَأْ يُرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ)؛ الأمر له سبحانه، يفعل بحكمة وعدل، لا اعتراض على حكمه. وليس لأحد من البشر أن يحتكر الرحمة لطائفته، أو يوزع مصائر الخلق بحسب غضبه ورضاه. نحن نشهد بالظاهر، ونبين الحق، ونرجو للمحسن، ونخاف على المسيء؛ أما السرائر والخواتيم فعند الله.

ثم يخاطب نبيه ﷺ: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا)؛ أي لست موكلاً بإجبارهم على الإيمان، ولا قائماً على قلوبهم تملك تصريحها. فإذا كان الرسول ﷺ، وهو أصدق الخلق دعوةً وأعظمهم منزلةً، لم يجعل مالكاً لقلوب الناس، فكيف يتوهم داعية أو عالم أو جماعة أن من حقهم السيطرة على ضمائر الخلق؟

مهمتك أن تفتح نافذة النور، لا أن تفتح القلب. أن تبين، لا أن تستعبد. أن تدعو، لا أن تتحول غيرتك على الهداية إلى كبر على المهتدي.

وفي هذا تحرير للداعية من العذاب النفسي الذي يصنعه التعلق بالنتائج. قد تشرح وتحب وتنصح، ثم لا يستجيب من أمامك. لا تجعل إعراضه دليل فشلك المطلق، ولا تحاول تعويض عجزك عن هدايته بإيذائه. القلوب بيد الله، والبلاغ أمانتك، والهداية منحة ربانية.

ثم يتسع العلم: (وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ). لا يقارن الله بين عباده على المظاهر التي يقارن بها البشر؛ إنه يعلم استعداداتهم وأعمالهم وصدقهم وابتلاءاتهم، ويضع فضله حيث تقتضي حكمته.

(وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ)؛ والنبوة اصطفاء، ومراتب الأنبياء فضل من الله. وليس التفضيل ظلماً؛ لأن العدل لا يعني تماثل الجميع في

المواهب والمقامات، بل أن يُعطى كل أحد ما تقتضيه الحكمة، وألا يُبخس حقه.

(وَأَتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا)؛ وذكر داود وكتابه تذكيرًا بوحدة الوحي وتنوع العطايا. فقد يُعطى نبي ملكًا ونبوة وصوتًا خاشعًا وكتابًا، ويُعطى آخر نوعًا مختلفًا من الفضل؛ والجميع عباد الله لا يملكون شيئًا استقلالًا عنه.

وهذه تربية للإنسان على استقبال تفاوت المواهب دون حسد. ليست فضيلة غيرك إدانةً لك، ولا عطية أخيك اقتطاعًا من نصيبك. الذي أعطى داود الزبور هو الذي يوزع المواهب بحكمة، وخزائنه لا تنقص حين يكرم سواك.

آلهة عاجزة تحتاج هي نفسها إلى الله

قال الله تعالى: (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا) ٥٦ أولئك الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) (الإسراء: ٥٦-٥٧).

يضع القرآن المعبودات المزعومة في اختبار الضر: (ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ). ادعوهم حين يلامس الألم العظم، وحين تُغلق أبواب البشر، وحين يصير الإنسان في مواجهة عجزه الصريح؛ ماذا يملكون؟

(فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا). لا يملكون إزالته، ولا نقله من حال إلى حال، ولا تحويله منكم إلى غيركم. وقد يشفع من أذن الله له،

ويجري الله الخير على أيدي بعض خلقه، لكن الملك الحقيقي والاستقلال بالفعل لله وحده.

إن المخلوق قد يكون سبباً، لكن السبب لا يصبح رباً. الطبيب يعالج ولا يخلق الشفاء، والصديق يعين ولا يملك دفع القدر، والحاكم يوقع قراراً ولا يملك أرزاق الناس، والمال يفتح باباً ولا يضمن لك أن يكون وراءه خير.

والمشكلة ليست في استخدام الأسباب، بل في انتقال القلب من الاستعانة بها إلى السكون إليها. حين يشعر الإنسان أن وجود شخص بعينه هو ضمان نجاته، أو أن انهيار منصبه يعني انهيار حياته، فقد منح السبب حجماً أكبر من حقيقته.

ثم يكشف القرآن المفارقة: (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ). الذين يدعوه المشركون - من ملائكة أو أنبياء أو صالحين - هم أنفسهم عباد يطلبون القرب من الله. فكيف تجعل المحتاج إلى الله إلهاً مع الله؟

إنهم لا يقولون: استغنيا، بل يبتغون؛ والابتغاء حركة قلب دائمة نحو القرب. وكلما كان العبد أعرف بالله، كان أشد افتقاراً إليه، وأبعد عن قبول أن يصرف له أحد شيئاً من العبادة.

(وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ)؛ بين جناحي الرجاء والخوف يسير أولياء الله الحقيقيون. لا يغترون بأعمالهم، ولا ييأسون من رحمته. الرجاء يمنعهم من القنوط، والخوف يمنعهم من الأمن الكاذب.

أما النفس المختلة فتأخذ أحد الجناحين وتكسر الآخر: إما خوف بلا رجاء يحول الدين إلى ظلمة ويأس، وإما رجاء بلا خوف يجعل الرحمة حجةً للتمادي. والإيمان الحي يرى الله رحيماً لا يُيأس منه، عظيمًا لا يُستهان بأمره.

(إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا)؛ أي جديرًا أن يحذره كل أحد. ومن صدق خوفه لم يكتفِ بارتجاف عابر، بل غيّر الطريق الذي يقوده إلى ما يخاف.

المدن التي تتوهم الخلود

قال الله تعالى: (وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا) (الإسراء: ٥٨).

يرى الإنسان المدن شامخة فيتوهم أنها أثبت منه، وأن الإسمنت والحجارة يمنحان الجماعات عمرًا لا ينتهي. لكن القرآن يزيل وهم الدوام: كل قرية ماضية إلى فناء، إما بانقضاء آجال الأمم والمجتمعات وخراب عمرانها، أو بعذاب ينزل بسبب كفرها وفسادها.

(كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا)؛ أي مكتوبًا في علم الله وتقديره، لا يفاجئه تغير، ولا يخرج شيء عن إحاطته.

والآية لا تدعو إلى ترك العمران بحجة فناءه؛ بل تمنع الإنسان من تأليه العمران. ابن المدينة، لكن لا تبني قلبك داخل وهم خلودها. شيد الحضارة، لكن اجعلها طريقًا إلى العدل، لا صنمًا جديدًا تقيس به قيمة الإنسان.

كم من مدينة كانت تظن أن العالم ينتهي عند أسوارها، ثم صارت طبقةً من التراب يدرسها علماء الآثار! وكم من قصرٍ اتخذ صاحبه أبوابه العالية دليلاً على المنعة، ثم صار مفتوحاً للريح بعد أن عجزت الأبواب عن ردّ القدر!

إن فناء المدن يجعل مسؤولية القيم أعظم؛ فالبناء المادي يزول، أما العدل الذي أقيم فيه أو الظلم الذي مورس داخله فيبقى مكتوباً. قيمة الحضارة ليست كم ارتفعت أبراجها، بل كم رفعت من كرامة الإنسان.

لماذا لا تأتي الآيات كما يطلب المكذبون؟

قال الله تعالى: (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا) (الإسراء: ٥٩).

كان المشركون يطلبون آيات حسية خارقة على جهة التعنت، لا على جهة طلب الهداية. فيجيبهم القرآن بأن سنة الله مضت: إذا جاءت الآية المقترحة القاطعة ثم كُذبت، استحق المكذبون الاستئصال؛ وقد رحم الله هذه الأمة بعدم إجابتهم إلى ما اقترحوه على هذا الوجه.

(وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً)؛ آية واضحة مضيئة لا غموض فيها. لكن وضوح المعجزة لم يخلق فيهم إرادة الإيمان: (فَظَلَمُوا بِهَا). ولم يقل: «ظلموها» فقط؛ بل ظلموا بسببها وفي شأنها، إذ قابلوها بالجحود والعقر.

وهنا تنكشف خديعة نفسية متكررة: يقول الإنسان إنه لو رأى دليلاً آخر لآمن، مع أن مشكلته قد لا تكون في قلة الأدلة، بل في موقفه منها. يطلب آية جديدة حتى يؤجل الاستجابة للآية القائمة.

وكم من إنسان يقول: إذا تحسنت ظروفي عبدت الله، وإذا انكشفت لي الحكمة رضيت، وإذا رأيت كرامةً أيقنت. لكنه يجعل الإيمان عقدًا مشروطًا بإدارة الكون وفق رغباته. لا يريد أن يكون عبدًا يرى الآية، بل حكمًا يقرر الشكل الذي ينبغي أن تأتي عليه.

(وَمَا نُزِيلُ بِالآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا)؛ فالآيات الخارقة، والحوادث التي تهز الناس، ليست مادةً للفرجة، بل إنذارات توقظ الضمير. والتخويف القرآني ليس تعذيبًا نفسيًا، بل رحمة تنبه النائم قبل أن يبلغ الحريق فراشه.

قد تكون الزلزلة في القلب قبل الأرض: موت قريب، أو مرض مفاجئ، أو سقوط شيء ظنه الإنسان ثابتًا. ليست كل مصيبة عقوبة، ولا يجوز الجزم في واقعة معينة بغير دليل؛ لكن كل اهتزاز في الحياة يحمل تذكيرًا عامًا: لا شيء هنا جدير بأن تطمئن إليه اطمئنان الخلود.

الرؤيا التي تكشف ما تخفيه النفوس

قال الله تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمُلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا) (الإسراء: ٦٠).

(إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ)؛ أحاط بهم علماً وقدرَةً، فلا يخرجون عن سلطانه، ولا يستطيعون أن يطفئوا نوره، مهما بدا سلطانهم كبيراً. وهذه الآية أمان لصاحب الرسالة: أنت محاط بعناية من أحاط بخصومك قدرةً وعلماً.

قد يرى المؤمن كثرة الباطل فيرتبك، كأن الله لا يعلم خطئه أو لا يملك رده. فتقول الآية: الذين يحاصرونك هم أنفسهم داخل إحاطة ربك. لا تقع أنت وهم في الدائرة نفسها؛ أنت في حفظه، وهم في قبضته.

ثم يقول: (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ). والمراد - عند جمهور المفسرين - ما أراه الله نبيه ﷺ ليلة الإسراء، وسُميت رؤيا عين. كانت الواقعة آية للمؤمن، وفتنة تكشف من يصدق ومن يرتاب.

الحادثة واحدة، لكنها أخرجت مكنونات مختلفة. وهذا هو معنى الفتنة: ليست دائماً شراً في ذاتها، بل امتحان يكشف حقيقة المعدن. النار نفسها تجعل الذهب أنقى، وتحول الهشيم رماداً.

الإسراء لم يصنع ضعف إيمان المرتابين، بل كشفه. وكذلك الابتلاءات: لا تزرع دائماً ما يظهر في الإنسان، وإنما ترفع الغطاء عنه. المال لا يصنع البخل من العدم، لكنه يمنح البخل فرصة الظهور؛ والسلطة لا تخلق الكبر دائماً، بل تكشف الكبر الذي كان ينتظر الأدوات.

(وَالشَّجَرَةُ الْمُلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ)؛ وهي شجرة الزقوم، لعنت بمعنى الإبعاد عن الخير، أو لعن أكلوها، وكانت فتنةً للمكذبين حين استبعدوا وجود شجرة تنبت في أصل الجحيم. قاسوا عالم الآخرة على قوانين مألوفهم، فجعلوا جهلهم بالكيفية دليل استحالة.

(وَنُحَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا). التخويف في ذاته دعوة إلى الرجوع، لكن النفس المستكبرة تحول الإنذار إلى مزيد من التحدي. كمن يرى اللافتة على حافة الهاوية، فيزيد سرعته ليثبت أنه حر!

ليس الطغيان قوة، بل عجز عن التراجع. فالإنسان القوي يستطيع أن يقول: أخطأت. أما الطاغية فيشعر أن الرجوع كسرٌ لصورته، فيمضي في طريق يعرف في أعماقه أنه يهلكه، حفاظاً على وهم الثبات.

السجدة التي كشفت مرض التاريخ

قال الله تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتُ طِينًا ۝ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنُؤِخِّرَنَّ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَكِنَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا) (الإسراء: ٦١-٦٢).

تعود السورة إلى بداية الصراع. أمر الملائكة بالسجود لآدم سجود تكريم بأمر الله، فسجدوا جميعاً إلا إبليس. لم تكن مشكلته أنه لم يفهم الأمر، بل أنه لم يقبل منزلة من أمر بتكريمه.

(أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتُ طِينًا)؛ اختزل آدم في مادته، وتجاهل سر النفخة والتكريم والعلم. وهذه هي عين العنصرية: أن تختزل الإنسان في عنصر واحد من تكوينه - لون، أو عرق، أو منطقة، أو طبقة - ثم تجعل ذلك العنصر حكماً على قيمته كلها.

إبليس رأى الطين ولم يرَ أمر الله. وكثير من المتكبرين يرون في الآخرين ما يحتقرونه، ولا يرون ما أودع الله فيهم من الكرامة. يبحثون عن أصل

فقير، أو نسب بعيد، أو لهجة، أو مهنة، كي يتخذوا منها مبررًا لرفض الحق الذي يحمله الشخص.

ولم يقل إبليس: أنت لم تكرمه، بل قال: (هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ)؛ كان يعرف أن التكريم جاء من الله، لكنه اعترض عليه. فالحسد في عمقه اعترض على توزيع الله للفضل: لماذا أعطيته؟ لماذا رفعته؟ لماذا لم أكن أنا؟

الحاسد لا يتألم من نقص ما عنده فقط، بل من وجود النعمة عند غيره. وقد ينسى نعمته كلها لأنه مشغول بعطية واحدة في يد أخيه. وهكذا تحول إبليس من عابد بين الملائكة إلى عدو للإنسان؛ لأن سجدة واحدة اصطدمت بتضخم الذات.

ثم أعلن مشروعه: (لَأَحْتَكِنَ ذُرِّيَّتَهُ). والاحتناك الأخذ والاستيلاء، وأصله وضع الحبل في حنك الدابة لقيادتها. يريد أن يقود ذرية آدم من موضع الرغبة والخوف، كما تُقاد الدابة من حنكها.

إن الشيطان لا يخلق في الإنسان شهواته، لكنه يحاول الإمساك بزمامها. لا يخلق حب المال، بل يحوله من وسيلة إلى سيد. لا يخلق الغضب، بل يمسك به حتى يقود صاحبه إلى الظلم. لا يخلق الحاجة إلى القبول، بل يضخمها حتى يصير الإنسان عبدًا لآراء الناس.

(إِلَّا قَلِيلًا)؛ يعرف إبليس أن عباد الله المخلصين يفلتون من سلطانه. ليست الكثرة دائمًا علامة نجاة، ولا القلة دليل ضعف؛ فقد يمضي جمهور الناس وراء الزينة العاجلة، ويبقى القليل ممسكًا بحريته الداخلية.

أذهب: فالمعركة مكشوفة

قال الله تعالى: (قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ۝ وَاسْتَفْزِرْ مِنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا) (الإسراء: ٦٣-٦٤).

(قَالَ أَذْهَبَ)؛ كلمة فيها طرد واحتقار، وإمهال لا يعني الرضا. يمضي إبليس إلى مهمته، لكن سلطانه محدود، ونهايته معلومة، ومن اتبعه فعل ذلك باختياره بعد قيام التحذير.

(فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ)؛ لم يقل: من أجبرته. الشيطان يدعو ويزين ويعد، لكنه لا يسلب الإنسان أصل إرادته. ومعرفة عداوته لا تعفيانا من المسؤولية؛ فلا يحق لأحد أن يرتكب الجريمة ثم يقول: أغواني الشيطان. لقد طرق الباب، وأنت فتحت.

(فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا)؛ كاملاً غير منقوص. اتبعوه طلباً للزيادة في اللذة والقوة، فجاء الجزاء «موفوراً» من جنس اكتمال ما اختاروا من طريق الشر؛ لكنه وفور العذاب لا وفور النعمة.

ثم تُرسم أدوات المعركة:

(وَاسْتَفْزِرْ مِنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ)؛ الاستفزاز هو الاستخفاف والإزعاج للإخراج عن الثبات. وصوت الشيطان كل نداء إلى معصية الله، وكل خطاب يَجْمَلُ الباطل، وكل ضجيج يمنع الإنسان من سماع فطرته.

إنه يحب الضوضاء؛ لأن الحقائق الكبرى تُسمع غالبًا في لحظات السكون. فإذا ظل الإنسان محاطًا بالأصوات والإشعارات والمحتوى المتدفق، لم يجد فرصةً ليسأل نفسه: إلى أين أذهب؟ ومن الذي يقودني؟

ليس كل صوت مرتفع قويًا؛ قد يكون ارتفاعه محاولةً لمنحك من سماع ضعفه.

(وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ)؛ اجمع عليهم كل قوائك، راجلها ورجلها. صورة معركة شاملة لا يترك فيها العدو وسيلةً لم يستخدمها. هناك فتنة تأتي مسرعةً كفرسان الهجوم، وأخرى تتسلل ببطء كالمشاة؛ إحداهما تصدمك، والأخرى تصاحبك حتى تألفها.

فالانحراف قد يأتي في لحظة شهوة عاصفة، وقد يأتي عبر تكرار صغير يغيّر حساسيتك الأخلاقية على مهل. والخطر الثاني أشد خفاءً؛ لأنك لا تسمع صوت السقوط، بل تجد نفسك بعد زمن في موضع لم تتخيل أنك ستبلغه.

(وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ). يشاركونهم في الأموال حين تُكتسب من حرام، أو تُنفق في حرام، أو تمنع من حق. ويشاركونهم في الأولاد حين يُطلبون أو يُربّون على غير طاعة الله، أو يُتركون نهبًا للانحراف، أو تُغرس فيهم قيم الكبر والفساد.

وما أعمق التعبير: قد يكون المال في حسابك، لكن للشيطان فيه حصة من جهة توجيهه. وقد يحمل الطفل اسمك، لكن الثقافة التي ربيتها عليها صنعت ولاءه لغير قيمك. الملكية الظاهرة لا تعني أن الأثر لك.

(وَعَذُّهُمْ)؛ فالشيطان يعيش على الوعود: ستسعد بعد هذه المعصية، ستستريح إذا انتقمت، ستصبح حرًا إذا كسرت كل حد، ستتوب لاحقًا، ما زال العمر طويلًا، لن تُكشف، الجميع يفعلون ذلك.

إنه لا يمنح حقيقة، بل يبيع مستقبلًا متخيلاً مقابل حاضر الإنسان وإيمانه.

(وَمَا يَعْذُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا)؛ والغرور ما يخدع بظاهره ويخفي فراغه. كل سلعة شيطانية لها صورة براقة وفاتورة مؤجلة. يعرض اللذة ويخفي الإدمان، ويعرض السلطة ويخفي الوحشة، ويعرض الانتقام ويخفي السجن الداخلي الذي تبنيه الكراهية.

والإنسان المعاصر يعيش داخل صناعة هائلة للوعود: إعلان يعده بالسعادة إذا اشترى، ومنصة تعدّه بالقيمة إذا شاهده الناس، وأيديولوجيا تعدّه بالجنة الأرضية إذا سلّم لها عقله. ولا يخلو كل ذلك من منافع مباحة، لكن الخطر أن يتحول الوعد التسويقي أو السياسي إلى بديل عن وعد الله، وأن يبيع الإنسان عمره لصورة لا تصل.

الحصن الذي لا يملكه الشيطان

قال الله تعالى: (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا) (الإسراء: ٦٥).

بعد استعراض جيش الشيطان - صوته، وخيله، ورجله، ومشاركته، ووعوده - تأتي هذه الآية قصيرة كحصن لا يُفتح: (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ).

لم يقل: «إن الأقوياء»، ولا «الأذكياء»، ولا «الزاهدين في كل شيء»، بل: (عِبَادِي). الحماية في صدق العبودية. فكما كانت العبودية سر الإسراء في أول السورة، هي هنا سر النجاة من الاستعباد الشيطاني.

كلما كنت عبدًا لله، صرت حرًا مما سواه.
وكلما نقصت عبوديتك له، وُزّعت قيودك بين الشهوة والخوف والناس.

ليس معنى نفي السلطان أن العبد لا يخطئ أو لا يُوسوس له؛ فقد تقع منه الزلة، لكن الشيطان لا يملك عليه سلطان الحجة والقهر، ولا يستطيع أن يجعله عبدًا دائمًا له ما دام يعود إلى الله. قد يسقط العبد، لكنه لا يبيع السقوط؛ ينهض بالتوبة، ويكسر السلسلة قبل أن تصبح هوية.

(وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا)؛ عادت الوكالة التي بدأت بها السورة عند قوله: (أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا). فمن اتخذ الله وكيلًا كفاه، ومن طلب الوكيل المطلق في غيره وُكل إلى ضعيف مثله.

ليس معنى التوكل أن تنكر أدوات المعركة؛ بل أن تستعملها وقلبك معلق بالله. تغلق أبواب الفتنة، وتختار صحبتك، وتحرس سمعك وبصرك، وتنظم وقتك، وتبتعد عن مواطن الضعف، ثم تعلم أن الحفظ ليس بقوة هذه الأسوار وحدها، بل بربك.

فالإنسان قد يعرف مداخل الشيطان كلها، ثم يسقط بسبب إعجابه بمعرفته. وقد يكون قليل العلم بالتفاصيل، لكنه صادق الالتجاء إلى الله، فينجيه افتقاره. وأكمل الطريق أن تجمع البصيرة بالأسباب مع دوام الاستعانة بمسببها.

خلاصة الفصل

الحرية تبدأ حين تعرف من يقودك

تكشف هذه الآيات أن معركة الإنسان لا تقع خارج النفس وحدها، بل في موضع القيادة داخلها.

من يقود الكلمة حين تغضب؟

ومن يقود المال حين تشتتهي؟

ومن يربي أبنائك: وحي الله، أم ضجيج السوق؟

ومن يعدك بالمستقبل: ربك، أم خوفك، أم الإعلان، أم الشيطان؟

ومن يحدد قيمتك: العبودية لله، أم أعين الناس؟

لقد أعلن إبليس مشروعه بوضوح: (الْأَحْتَكَنَ ذُرِّيَّتَهُ)؛ سأضع الحبل في موضع قيادتهم. لكنه لم يقل إنه سيخلق فيهم حاجاتهم؛ إنما سيستولي على اتجاهها. فالمعركة ليست في أن تموت الرغبة، بل فيمن يمسك زمامها.

ويبدأ التحرر من ثلاث حقائق:

أن الشيطان عدو، فلا تستقبل وسوسته بوصفها صوت نفسك الأصيل.
وأن وعده غرور، فلا تحكم على الطريق من لمعان بدايته.
وأن سلطانه مكسور أمام العبودية، فلا تجعل كثرة الفتن حجةً لليأس.

إنك لست أقوى من الشيطان بذاتك، لكنك حين تكون لله تكون في حصن من لا يُغلب. وعبرة (عِبَادِي) وحدها كافية لتعيد إلى الروح أمنها: لك رب ينسبك إليه، ويحمي فيك معنى العبودية، ويفتح لك باب العودة كلما نزغك العدو.

وبعد أن كشفت السورة عدو الإنسان الخفي، ستضعه أمام مشهد آخر: البحر حين تضطرب أمواجه، وتسقط الآلهة الوهمية من الذاكرة، ولا يبقى في القلب إلا الله. هناك يتبين أن التوحيد ليس فكرةً يتعلمها الإنسان فحسب، بل حقيقةً مدفونة في أعماقه، توقظها الشدة:

(رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ...).

الفصل السادس

حِينَ يَسْقُطُ الْوَهْمُ فِي عُمُقِ الْبَحْرِ

نعمة النجاة، وكرامة الإنسان، والعمى الذي يبدأ في القلب

قال الله تعالى: (رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا) (الإسراء: ٦٦).

بعد قوله: (وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا)، تعرض السورة مشهدًا محسوسًا من آثار هذه الوكالة: سفينة صغيرة تشق بحرًا هائلًا، تحمل فوق ظهرها الإنسان الضعيف، ويقودها الله خلال قوانين الريح والماء والحركة.

(رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ)؛ والإزجاء سوق الشيء برفق وتدرج. ليست السفينة منفلةً في العاصفة الكونية، بل تمضي ضمن تقدير دقيق. تهب الريح، ويتماسك الخشب، وتبقى كثافة الماء على حالها، وتهتدي العقول إلى قوانين الملاحة؛ وكل ذلك جزء من التسخير الإلهي.

لقد اخترع الإنسان السفينة، لكنه لم يخترع قابلية الماء لأن يحملها، ولا الريح لأن تدفعها، ولا العقل الذي أدرك قوانينها، ولا المواد التي صُنعت منها. كل اختراع بشري هو اكتشاف لإمكانٍ أودعه الله في الكون قبل أن يأتي المخترع.

ولهذا لم يقل: «ربكم الذي خلق البحر» فحسب، بل: (يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ)؛ فالعناية ليست في إيجاد الأشياء فقط، بل في تسخير العلاقات بينها لمنفعة الإنسان. البحر، والخشب، والريح، والعقل؛ عناصر متفرقة يجمعها الله في شبكة رحمة، فيعبر الإنسان من ساحل إلى ساحل.

(لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ)؛ فالسفر والتجارة وطلب الرزق ليست حركات منفصلةً عن الإيمان. حين يخرج التاجر صادقًا، أو يبحر العامل طالبًا الحلال، فهو يبتغي من فضل الله. الدين لا يحبس الإنسان في المسجد، بل يفتح له البحر، ثم يصحح علاقته بما يطلبه فيه.

والرزق هنا فضل لا استحقاق محض. تبذل جهدك، لكن جهدك لا يخلق النتائج من العدم. كم من ماهر سُدَّتْ عليه الأبواب، وكم من فرصة جاءت من طريق لم يُحسب له حساب! ليس في هذا إلغاء للسنن، بل منع لتحويل الكفاءة إلى صنم.

(إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا)؛ إن السفينة فوق الماء ليست دليل ذكاء الإنسان وحده، بل أثر رحمة الله. والرحمة تحيط بنا في صور اعتدناها حتى فقدنا الدهشة منها: أرض ثابتة، وهواء صالح للتنفس، وماء يحمل السفن، وجسد يصلح للحياة.

ليس الاعتقاد دليل غياب المعجزة؛ إنما هو حجاب يضعه التكرار فوقها.

التوحيد الذي تستخرجه العاصفة من أعماق النفس

قال الله تعالى: (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا) (الإسراء: ٦٧).

يتغير المشهد: لم يعد البحر طريق رزق هادئًا؛ بل صار موجًا يهدد الحياة. وهنا تنكشف طبقات النفس.

(وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ)؛ عبّر بالمس، مع أن الخوف قد يبلغ أقصى الأعماق؛ لأن أشد ما يصيب الإنسان ليس إلا مساً من البلاء بالنسبة إلى قدرة الله، ولأن الضر مهما اشتد لا يملك أن يحيط بالمؤمن إحاطة ربه به.

(ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ)؛ غاب عن الوعي كل من كان القلب يتعلق به. لا تعود الثروة ذات معنى، ولا ينفع النفوذ، ولا يستطيع الجمهور أن يصفق لك فوق الموج. تسقط الأسماء والرتب، ويخرج من أعماق الفطرة نداء واحد: يا الله.

ليست الشدة هي التي تخلق التوحيد من العدم؛ إنها تزيل عنه ضجيج العلائق. كان الله هو المنجي قبل العاصفة، لكن سكون البحر سمح للأوهام أن تتكاثر. فلما ارتفع الموج، انخفض صوت الزيف.

في الرخاء يظن الإنسان أن الأشياء مستقلة بقوتها: الطبيب يشفي، والمال يحمي، والمنصب يمنع. فإذا جاءت لحظة يتوقف فيها الجميع عند حدودهم، عرف القلب أن الأسباب كانت ستائر تمر من خلالها القدرة، لا آلهة تملك الأمر.

(فَلَمَّا نَجَّأكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ)؛ ما أقصر المسافة بين الدعاء والإعراض! كان صوته في البحر مبللاً بالدموع، فلما جف ثوبه على الساحل جفّ معه قلبه. كأن الخطر وحده كان يوقظ العبودية، فلما زال عاد الإنسان إلى وهم الاكتفاء.

وهذا داء نفسي متكرر: نتخذ الله ملجأ طوارئ، لا رب حياة. ندعوه حين تتعطل الأسباب، فإذا أصلحها لنا عدنا فاحتجبنا بها عنه. في المرض نقسم أن نبدأ حياة جديدة، فإذا عادت العافية استأنفنا الغفلة القديمة.

النجاة لم تكن نهاية الاختبار؛ لقد كانت بداية اختبار أشد: هل تحفظ في البر حقيقةً عرفتھا في البحر؟

(وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا)؛ صيغة مبالغة تدل على كثرة جحوده. لا ينسى النعمة فقط، بل يستتر أثر المنعم وراء السبب. يقول: نجا المركب بمهارة الربان، وتعافيت بقدرة الطبيب، وحصلت على العمل بذكائي. وهذه أسباب صحيحة، لكن الكفران أن تقف عندها كأنها صنعت ذاتها ونتائجها.

والشكر ليس أن تقول «الحمد لله» بعد النجاة ثم تعود كما كنت؛ الشكر أن تحمل أثر النجاة في طريقة حياتك. أن تصبح أكثر تواضعًا، وأشد رحمةً بمن لا يزال في بحرہ، وأوفى لمن أنقذك.

البر ليس خارج سلطان الله

قال الله تعالى: (أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا) ○ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلِيًّا بِهِ تَبِيعًا) (الإسراء: ٦٨-٦٩).

ظن الإنسان أن وصوله إلى البر يعني وصوله إلى منطقة آمنة من القدر. فيسأله القرآن: (أَفَأَمِنْتُمْ؟)

الأمن الحقيقي نعمة، أما الشعور بالحصانة من الله فغرور. لا البحر وحده قادر - بإذن الله - على أن يكون موضع الهلاك؛ قد تخسف الأرض التي حسبتها ثابتة، وقد يأتي الحاصب من السماء، وقد تعود إلى البحر فتأخذك الريح القاصفة.

(أَنْ يَخْشِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ)؛ الأرض التي تطمئن إليها قد تنشق تحت القدم. إن الأشياء لا تمنح الأمان بذاتها؛ فالبر ليس ربًا يحميك من البحر، والبيت ليس ربًا يحميك من الخارج، والدولة ليست ربًا يحفظك من الفوضى. كلها أسباب لا تقوم لحظة واحدة إلا بإمساك الله.

(أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا)؛ ريحًا ترمي بالحصباء. فالخطر قد يأتي من تحتكم أو فوقكم، من الأرض التي تحملكم أو السماء التي تظلكم. أنتم في كل الجهات داخل ملك الله.

ثم يقول: (ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا). عادت كلمة الوكيل للمرة الثالثة في السورة؛ لتؤكد أن أزمة الإنسان الكبرى هي بحثه عن ضمان مطلق عند مخلوق محدود. من اتخذ الله وكيلاً استخدم الأسباب مطمئناً إلى ربها، ومن اتخذ الأسباب وكلاء مطلقين عاش خائفاً من انهيارها.

ثم يستأنف الاستفهام: (أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى). قد ينجو الإنسان من الخطر، ثم يعود إلى موضعه بعد زمن وينسى ضعفه الأول. فهل يملك ضمان أن تكون الرحلة الثانية كالرحلة الأولى؟

(فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ)؛ ريحاً شديدة تكسر ما تمر به. السفينة التي بدت قوية تصير أمامها هشيماً؛ لأن قوة المخلوق نسبية، تكبر أمام الأضعف وتصغر أمام الأقوى، أما القوة المطلقة فله.

(فَيُغْرِقْكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ)؛ الباء للسببية، أي بسبب كفركم وجحودكم. وليس كل غريق معاقباً، فذلك حكم يحتاج إلى وحي، لكن الآية تتحدث عن هؤلاء المخاطبين في سياق التهديد على كفرهم. ويجب ألا تتحول سنن الوعيد العامة إلى جراحة على تعيين مصائر الأفراد دون علم.

(ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا)؛ لا أحد يطالب الله أو يتبعه بثأرٍ أو تبعه؛ فهو لا يظلم، ولا يُسأل اعتراضاً عن حكمه، وكل قضائه قائم على العلم والحكمة والعدل.

وهنا يتعلم الإنسان أن رحمة الله لا تعني العجز عن عقوبته، وأن حلمه لا يعني الغفلة. الرب الرحيم الذي أزجى السفينة هو القادر أن يرسل القاصف؛ فالإيمان الناضج لا يختزل الله في صورة تمنح النفس طمأنينة زائفة، بل يجمع بين محبته وتعظيمه، ورجاء رحمته وخشية عدله.

كرامة الإنسان: منحة تسبق كل هوية

قال الله تعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) (الإسراء: ٧٠).

بعد أن صوّرت الآيات الإنسان ضعيفاً في البحر، تعلن أنه - مع ضعفه - مكرم. فالكرامة لا تعني الاستغناء عن الله، ولا تلغي هشاشة المخلوق؛ إنها منحة الرب للعبد، وليست ألوهية صغيرة للإنسان.

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ)؛ لم يقل: كرمنا الأغنياء، أو أصحاب القوة، أو قومًا دون قوم، بل بني آدم. أصل الكرامة متصل بالإنسانية نفسها، قبل أن تنتزع الألسنة والألوان والأوطان.

وهذه الآية تضرب جذور العنصرية كلها. من يحتقر إنساناً بسبب لونه أو نسبه أو فقره إنما يزدري مخلوقاً أعلن الله تكريمه. قد يفقد الإنسان كرامته المكتسبة بالمعصية والظلم، وتختلف منازل الناس بالتقوى، لكن أصل

الكرامة الآدمية يفرض ألا يتحول جسد الإنسان إلى سلعة، ولا دمه إلى رقم، ولا ضعفه إلى فرصة للاستغلال.

والتكريم ظاهر في خلقته المعتدلة، وعقله، وبيانه، وقدرته على الاختيار والتعلم، وتسخير أشياء كثيرة له، وحمله أمانة التكليف. لكنه تكريم مسؤولية، لا وثيقة غرور. لم يقل: «كرمناكم فافعلوا ما شئتم»، بل وضع الكرامة داخل سورة كاملة من الأوامر والنواهي.

ومن أخطر انحرافات العصر أن تُفهم الكرامة باعتبارها تحرراً من كل تكليف؛ مع أن التكليف نفسه جزء من التكريم. فالحيوان تتحكم فيه غريزته، أما الإنسان فقد أُعطي القدرة على أن يقول لرغبته: لا؛ وعلى أن يختار الحق ولو خسر لذة عاجلة.

الحرية التي تعجز عن ضبط نفسها ليست ذروة الكرامة، بل سقوط عن مقامها.

(وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)؛ الإنسان المحمول الذي يتوهم أحياناً أنه الحامل للوجود كله. تحمله الدابة والمركبة والسفينة، وتحمله قوانين أودعها الله في الكون. حتى حين يمشي على قدميه تحمله الأرض، وتحمله عضلات لم يصنعها، وتوازنات لا يديرها بوعيه.

وفي عصر الطائرات والمركبات السريعة، يظهر معنى الحمل أوضح. يقطع الإنسان آلاف الأميال وهو جالس، لكنه قد ينسى أن كل وسيلة متطورة ليست سوى تركيب بشري لمواد وقوانين خلقها الله. التقنية لا تناقض التسخير الإلهي؛ إنها إحدى ثماره.

(وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ)؛ لم يرزقهم ما يبقي الحياة فقط، بل رزقهم الطيبات: ألوان الطعام، وجمال المذاق، واللباس، والروائح، والمناظر، والعلاقات التي تستطيع بها الروح. كان يمكن للوجود أن يؤدي وظيفة البقاء بلا هذا الفيض من الجمال، لكن الله لم يخلق الإنسان آلة للبقاء؛ منحه ذائقة تتلقى جمال عطائه.

والطيب لا يقتصر على المادة؛ هناك كلمة طيبة، وصحبة طيبة، وذكر طيب، وعلم يطيب به القلب. وقد يملك الإنسان وفرة من الطعام، لكنه محروم من رزق الطمأنينة؛ فيعلم أن الخبز وحده لا يشبع الإنسان كله.

(وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)؛ بالتعقل والبيان والتسخير والاستعداد للمعرفة والعبادة. وجاء (عَلَى كَثِيرٍ) بأدب الدقة القرآنية؛ فلم يقل «على كل» في هذا الموضع. والإنسان المكرم يظل محاطًا بعوالم لا يدركها كلها، فلا ينبغي أن يحول تفضيله إلى استكبار على الخلق.

إن تكريم الإنسان له وجهان:

أن تحميه من الإذلال الخارجي، فلا تستعبده ولا تنتهك حقه. وأن تحميه من الانحدار الداخلي، فلا تترك شهوته تهبط به عن مقامه.

ومن يدافع عن جسد الإنسان ثم يسلم روحه للإدمان لم يحم كرامته كاملة. ومن يرفع شعار الحقوق ثم يحول البشر إلى مستهلكين تقاس قيمتهم بقدرتهم الشرائية، فقد حررهم من قيد ليضعهم في قيد آخر.

يوم تُدعى كل جماعة بإمامها

قال الله تعالى: (يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا) (الإسراء: ٧١).

بعد ذكر كرامة بني آدم في الدنيا، يأتي مشهد تقرير مصيرهم في الآخرة. الكرامة ليست إعفاءً من الحساب؛ بل لأن الإنسان مكرم بالعقل والاختيار فإنه مسؤول عن اتباع وما صنع.

(يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ)؛ والإمام ما يؤتم به: نبيهم، أو كتابهم، أو قائدهم ومنهجهم، بحسب ما تحتمله أقوال المفسرين. والمعنى الجامع يوقظ سؤال القيادة: من كان أمامك وأنت تمشي؟ وأي صوت منحته حق تشكيل طريقك؟

كل إنسان يتبع إمامًا وإن زعم الاستقلال المطلق. قد يكون إمامه نبيًا، وقد يكون مفكرًا، أو زعيمًا، أو مشهورًا، أو جماعة، أو شهوةً داخلية جعل رأيها فوق كل رأي. الذين يقولون إنهم لا يتبعون أحدًا قد يتبعون المزاج العام من حيث لا يشعرون.

وفي العالم الرقمي صار «الإمام» الذي يقود الانتباه أحيانًا خوارزمية لا يعرف الإنسان من صنعها ولا ما غايتها. تقترح عليه ما يشاهد، ثم ما يعتقد، ثم الأشخاص الذين يغضب منهم، حتى يظن أن اختياراته حرة، بينما بُني الممر أمامه خطوةً خطوةً.

لا تحذر الآية من كل اتباع؛ فالهداية نفسها اتباع للرسول والكتاب. إنما السؤال: هل اخترت إمامك على بصيرة؟ وهل يقودك إلى الله أم إلى نفسه؟ وهل يسمح لك أن تسأله وتزنه بالحق، أم يريد أن يصبح هو ميزان الحق؟

(فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بَيِّنَاتٍ)؛ اليمين موضع التكريم والبشارة. ها هو الكتاب الذي قيل له من قبل: (اقْرَأْ كِتَابَكَ)، لكنه هنا يُسَلَّم في هيئة أمان. وشتان بين قراءة يرتجف صاحبها من الفضيحة، وقراءة يملؤها الفرح بالنجاة.

(فَأُولَئِكَ يَفْرَعُونَ كِتَابَهُمْ)؛ يقرؤونه بطمأنينة وسرور، لا يخافون أن تظهر بين سطورهِ خيانةُ خباؤها عن الله؛ وإن وجدوا زلات تابوا منها وجدوا أثر المغفرة قد سبقهم إليها.

(وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا)؛ والفتيل هو الخيط الدقيق في شق النواة، يُضرب به المثل في القلة. لا ينفصون أدنى شيء من حسناتهم، ولا يحملون ذنبًا لم يفعلوه.

وهذه الطمأنينة من أعظم حاجات النفس. قد يعيش الإنسان في الدنيا تحت أنظمة تضيع حقه، أو تحت روايات تشوه تاريخه، أو بين أناس ينسون إحسانه ويتذكرون زلته؛ لكن هناك كتابًا لا يكتبه الخصوم، وميزانًا لا تميله الدعاية، وربًا لا يظلم فتيلًا.

لا يضيع المعروف لأن الناس لم يروه، ولا يصبح الباطل حقًا لأن الجمهور صدقه. الحقيقة محفوظة في علم الله.

عمى القلب الذي يعبر إلى الآخرة

قال الله تعالى: (وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا) (الإسراء: ٧٢).

ليس المقصود عمى البصر؛ فكم من فاقد البصر هو من أبصر الناس قلبًا، وإنما العمى عن دلائل الله وهدايته. إنه عمى الإرادة حين ترفض أن ترى، لا عجز العين عن استقبال الضوء.

(وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ)؛ في هذه الدنيا، أو في هذه النعم والآيات، أو عن القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم. كان محاطًا بالدليل، لكنه عاش كأن الوجود بلا دلالة؛ أكل الرزق ولم يرَ الرازق، ونجا من البحر ولم يتذكر المنجي، وحملته النعم فلم يقرأ فيها الرحمة.

(فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ)؛ لأن الآخرة ليست مكانًا تُمنح فيه بصيرة الإيمان لمن رفضها هنا. إنها موضع انكشاف الجزاء، لا إنشاء الاختيار من جديد. من أغلق نافذة قلبه في زمن العمل، جاء زمن الحساب وقد انتهت فرصة فتحها.

(وَأَضَلُّ سَبِيلًا)؛ لأن طرق التدارك في الدنيا كانت مفتوحة: كتاب، ورسول، وآية، وعقل، وتوبة. أما هناك فقد انقطع طريق الرجوع إلى العمل؛ فيصير الضلال أشد، لا من جهة خفاء الحقيقة، بل من جهة العجز عن تغيير المصير بعد انكشافها.

وما أخطر أن يرى الإنسان كل شيء إلا ما ينبغي أن يرى! قد يرى حركة الأسواق، ويحلل السياسة، ويفهم التقنية، ويحفظ دقائق العلوم، ثم يعمى

عن الغاية التي من أجلها يعيش. ليس الجهل وحده ضد البصيرة؛ قد تتحول المعرفة الكثيرة نفسها إلى ستار إذا لم تقد إلى معنى.

إن البصير قرآنياً ليس من يعرف عددًا أكبر من المعلومات، بل من يرى موضعه من الله، ومأل الطريق قبل أن ينتهي، وحقيقة الشيء وراء زخرفه. يرى المال أمانة قبل أن يراه ملكًا، والسلطة امتحانًا قبل أن يراها مجداً، والشهوة طريقًا ذا عاقبة قبل أن يراها لذة.

والعمى يبدأ غالبًا من نظرة متعمدة بعيدًا عن الحقيقة. يعرف الإنسان موضع الحق، لكنه يؤجل النظر إليه؛ ثم يعتاد الإعراض، حتى يصير الالتفات إليه مؤلمًا. ولهذا كان الدعاء بالبصيرة دعاءً للحياة الداخلية كلها: أن ترى الحق حقًا قبل أن تفقد زمن اتباعه.

الفصل السابع

حِينَ يُفَاوِضُ الْبَاطِلُ صَاحِبَ الرِّسَالَةِ

فتنة التنازل، وحفظ الله، وسنة إخراج المصلحين

قال الله تعالى: (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُكَ خَلِيلًا) (الإسراء: ٧٣).

بعد الحديث عن العمى، تعرض السورة محاولة الذين اختاروا العمى أن يغيّروا النور نفسه. إذا لم يستطع الباطل إسكات الوحي، حاول أن يفاوض حامله على نسخة مخففة منه؛ نسخة لا تهدم امتيازاته، ولا تكشف أصنامهم، ولا تطالبه بتغيير جذري.

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ)؛ أي قاربوا واجتهدوا في صرفك. والفتنة هنا ليست تعذيباً مباشراً فقط، بل إغراء وضغط ومساومة. فالعدو لا يأتي دائماً بالسيف؛ قد يأتي بابتسامة، ويقول: تنازل قليلاً نقرب منك، غير بعض الكلمات نحترمك، اترك هذه القضية ونفتح لك المنابر.

(عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)؛ غاية الفتنة إبعاد صاحب الرسالة عن مركزه: الوحي. لا يشترط أن يترك الدين كله؛ يكفي أن ينتقل من سؤال «ماذا يريد الله؟» إلى سؤال «ما الذي يرضي أصحاب القوة؟».

(لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ)؛ فالتعديل الذي يريدونه ليس اجتهاداً داخل طاعة الله، بل نسبة شيء إلى الله لم يقله. يريدون الاحتفاظ بقداصة المصدر بعد تفريغ مضمونه؛ لأن الباطل يعرف أن الناس قد لا تتبع رأيه إذا ظهر عارياً، فيحاول إلbasه ثوب الدين.

(وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا)؛ يا لها من قاعدة في نفسية الباطل! هم لا يعادونك دائماً لشخصك، بل لما تحمله. فإذا بدلت الرسالة، تحول العداء إلى صداقة. إنهم مستعدون لقبولك بشرط أن تتخلى عن أكثر ما يجعلك أنت.

وهذه الخلة المشروطة ليست محبةً لك، بل مكافأة على خيانتك. يقولون لصاحب المبدأ: كن قريباً منا، لكن اترك قلبك خارج المجلس.

وتتكرر الفتنة في كل عصر: يطلب من الكاتب أن يحذف الحقيقة التي تزعج الممول، ومن العالم أن يلون الفتوى بما يرضي السلطان، ومن المصلح أن يحصر الدين في الشعائر ويصمت عن الظلم، ومن المؤسسة أن ترفع القيم في شعاراتها ثم تستثني مصالحها منها.

والتنازل لا يبدأ غالباً بإنكار الحق كله، بل بإعادة صياغته حتى يفقد أسنانه. يسمى الصمت حكمة، والجبن مصلحة، وترك المظلوم حياً، ومسايرة القوة فقهاً للواقع. وليس كل صمت جبناً، ولا كل مداراة خيانة؛ لكن الميزان: هل يخدم الاجتهاد الحق، أم يستخدم الحق لخدمة الخوف؟

الثبات منحة قبل أن يكون بطولة

قال الله تعالى: (وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا) (الإسراء: ٧٤).

يخاطب الله نبيه ﷺ، المعصوم في تبليغ الوحي، مظهرًا نعمته عليه بالثبوت. ليس في الآية وقوع الركون، بل بيان قرب الفتنة في تقدير الحال لولا حفظ الله، وتعليم للأمة أن الثبات نعمة ربانية لا ثمرة صلابة بشرية مستقلة.

(وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ)؛ لم يقل: لولا أنك قوي أو عظيم الإرادة، بل نسب الثبات إلى الله. وهذه الكلمة تخرج عن صاحب المبدأ غرور البطولة. قد تقف اليوم ثابتًا، لكن لا تقل: أنا لا أغير، ولا أفتن. قل: ثبتني الله.

أخطر لحظة على المستقيم حين يعجب باستقامته، فيظن أنه فوق الفتنة. فالثبات لا يُخزن في النفس كملكية دائمة؛ إنه مدد متجدد يحتاج إلى دعاء ومراقبة وصحبة صالحة.

(لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا)؛ مجرد ميل قليل يستدعي هذا التحذير العظيم؛ لأن الانحرافات الكبيرة تبدأ بركون صغير. يتنازل صاحب الرسالة مرةً بحجة الضرورة، ثم يحتاج إلى التنازل الثاني لحماية الأول، حتى يصبح الاستثناء منهجًا.

والركون ليس اتفاقًا كاملاً، بل ميل النفس وسكونها إلى الطرف الآخر. قد لا تقل الباطل، لكنك تستأنس بقبوله لك حتى تخفف قول الحق. وقد لا تمدح الظالم، لكنك تخاف فقدان قربه أكثر من خوفك على نقاء رسالتك.

إن الله لا يريد لحامل الوحي أن يكون فظًا أو قاطعًا لكل صلة؛ فالقرآن أمر بالتي هي أحسن. لكنه يريد أن يكون لطفه في الأسلوب ثابتًا مع صلابته في الأصل، وأن يفتح قلبه للناس دون أن يفتح نصه للتحريف.

ثمن الانحراف يزداد بمقدار الأمانة

قال الله تعالى: (إِذَا لَأَذْنُكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا) (الإسراء: ٧٥).

لو وقع الركون - وحاشاه ﷺ وقد ثبتته الله - لكان الجزاء مضاعفًا في الحياة وبعد الممات. وكلما علت منزلة الإنسان، عظمت مسؤوليته؛ لأن خطاه لا يبقى حبيس شخصه، بل يتحول إلى قدوة وتبرير لغيره.

ليس العالم كمن لا يعلم، ولا القائد كفرد لا يتبعه أحد، ولا الكاتب صاحب المنبر كمن لا يتجاوز أثر كلمته مجلسًا صغيرًا. الاتساع في التأثير نعمة، لكنه يوسع دائرة الحساب.

(ضِعْفُ الْحَيَاةِ وَضِعْفُ الْمَمَاتِ)؛ عذابًا مضاعفًا في الدنيا والآخرة، لعظم المقام وفداحة نسبة الباطل إلى الوحي. إن من يبيع رأيه الشخصي أخطأ، لكن من يبيع كلامه ثم يضع توقيع الله تحته جمع بين الخيانة والافتراء.

(ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا)؛ فالذين عرضوا صداقتهم لا يستطيعون نصر من تنازل لأجلهم. يصفقون له ساعة استخدامه، ثم يتركونه حين تنتهي حاجتهم. ومن خسر نصره الله ليحصل على نصره البشر اكتشف متأخرًا أنه دفع الحقيقة ثمنًا لوهم.

حين يعجزون عن تغيير الرسالة يحاولون إخراج الرسول

قال الله تعالى: (وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ سَنَّةٌ مِّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا) (الإسراء: ٧٦-٧٧).

حين فشلت المساومة، انتقلوا إلى الاستفزاز والإخراج. هذه مراحل الباطل مع صاحب الرسالة: يحاول أولاً احتواءه، فإن لم يقبل شوّه صورته، فإن لم يسكت ضيق عليه المكان.

(لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ)؛ يحاولون اقتلاعك من أرضك كما يُستفز الشيء من موضع استقراره. فالطغيان لا يكتفي بالسيطرة على الأرض؛ يريد أن يقرر من يستحق البقاء فيها. يحول الوطن من حق مشترك إلى ملكية خاصة للمتسلط، يمنح الإقامة لمن يصفق وينزعها ممن يقول الحق.

لكن المفارقة: (وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا). يظنون أن إخراج صاحب الرسالة يثبت سلطانهم، فإذا غيابه بداية العدّ التنازلي لبائهم. فوجود المصلحين في المجتمع ليس عبئاً عليه، بل صمام أمان؛ وحين يطردهم المجتمع يكون قد طرد الأصوات التي كانت تمنعه من السقوط.

قد يبدو الناصح مزعجاً؛ لأنه يوقظ الأسئلة ويكشف الخلل. لكن إسكات جهاز الإنذار لا يطفئ الحريق، بل يجعل النار تعمل في هدوء.

(سَنَّةٌ مِّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا)؛ لست وحدك في هذا الطريق. الإخراج والتكذيب والضغط حلقات تكررت مع الرسل. ومعرفة السُنَّة

تمنح المبتلى قدرةً على فهم ألمه؛ فلا يفسره بأنه دليل هجر الله له، بل يراه جزءًا من طريق سبق أن مشت فيه أقدام الأنبياء.

ومن أقسى الألم أن يظن الإنسان أن ما وقع له بلا معنى. أما حين يضعه في سياق سنة الله، يتغير مذاقه: يبقى موجعًا، لكنه لا يبقى عبثًا.

(وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا)؛ القوى والأسماء تتغير، لكن القوانين الأخلاقية ثابتة. من يخرج رسوله يستدعي زواله، ومن يطرد النور يوسع سلطان الظلمة، ومن يهدم حاملي القيم يهدم الأساس الذي يحمله.

وسنن الله لا تحابي المؤمن إذا خالفها، ولا تمنح الكافر حصانة إذا جمع أسبابها المادية. من أخذ بأسباب القوة حصل له من أثرها، ومن أهمل العدل والوحدة والإعداد دفع الثمن، مهما كانت شعاراته.

ولهذا ففقه الاستخلاف لا يقوم على انتظار الخوارق مع تعطيل العمل، بل على معرفة السنن: بناء الإنسان، وإقامة العدل، وحفظ الأمانة، وإعداد القوة، والصبر على الطريق. الدعاء لا يلغي السنة؛ إنه يمد القلب ليحسن الأخذ بها.

خلاصة الفصلين

بين كرامةٍ يمنحها الله وصداقةٍ يساوم بها الباطل

لقد أعلن الله: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ)، ثم كشفت الآيات كيف يحاول الباطل سلب صاحب الرسالة كرامته: يعرض عليه القرب مقابل التنازل، ثم يهدده بالإخراج إن رفض.

لكن الكرامة التي وهبها الله لا تحتاج إلى تصديق الطغاة. من عرف أن ربه كرمه، لم يبيع نفسه ليجلس في مجلسهم. ومن علم أن الله ثبته، لم ينسب نجاته إلى صلابته. ومن فهم السنن، لم يظن أن إخراجه نهاية الرسالة؛ فقد يكون الخروج من المكان بداية دخول الفكرة إلى التاريخ.

لقد خرج النبي ﷺ من مكة، ثم عاد إليها فاتحًا. أما الذين ظنوا أنهم يملكون الأرض، فلم يلبث سلطانهم إلا قليلًا. وهكذا تعيد السورة تعريف المكان: ليست القوة أن تبقى في أرضك بأي ثمن، بل أن يبقى الحق في قلبك ولو أُخرج جسدك منها.

وحين يشتد ضغط الخارج، يحتاج القلب إلى مورد داخلي لا ينفد. ولذلك ستنتقل السورة بعد فتنة المساومة والإخراج إلى الصلاة والقرآن والتهدد والدعاء؛ إلى صناعة القوة في جوف الليل:

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا...).

الفصل الثامن

مَصَادِرُ الْقُوَّةِ فِي زَمَنِ الضَّغْطِ

الصلاة، والليل، والقرآن، ودعاء الدخول الصادق

قال الله تعالى: (أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) (الإسراء: ٧٨).

بعد أن عرضت السورة محاولات المشركين فتن النبي ﷺ عن الوحي، واستفزازه من الأرض، لم تأمره أن يواجه الضغط بمزيد من الانشغال به، بل ردتّه إلى الصلاة. فالخارج حين يشتد ضجيجه، يحتاج الداخل إلى مركز ثابت؛ وإلا دخلت المعركة إلى الروح، فانتصر الخصم فيها قبل أن ينتصر في الواقع.

(أَقِمِ الصَّلَاةَ)؛ لم يقل: أدِّ الصلاة فقط. والإقامة أوسع من الأداء؛ إنها أن تأتي بها قائمة الأركان، حية الروح، ظاهرة الأثر، وأن تقيمها في نفسك حتى تقيمك حين تميل.

الصلاة ليست انسحاباً من معركة الحياة، بل هي موضع إعادة بناء الإنسان الذي سيخوضها. فيها يتذكر أن خصومه ليسوا أكبر من الله، وأن رزقه ليس في أيديهم، وأن الأرض كلها لله، وأن الهزيمة الحقيقية ليست أن يضيعوا عليه المكان، بل أن ينجحوا في إبعاده عن ربه.

(لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ)؛ يمتد نظام الصلاة خلال تحولات الضوء والظلام. من زوال الشمس إلى اشتداد الليل، تتوزع الصلوات على اليوم حتى لا يبتلع الزمن قلب الإنسان دفعةً واحدة.

فالإنسان لا يضل عادةً لأنه قرر في الصباح أن ينسى الله طوال يومه، وإنما تسرقه التفاصيل شيئاً فشيئاً. تأتي الصلاة لتقطع هذا الاسترسال: توقظه من السوق، ومن الجدال، ومن العمل، ومن انهماكه في ذاته، وتقول له: لم تُخلق لهذه اللحظة وحدها.

الصلاة ليست عبئاً يقطع الحياة، بل رحمة تمنع الحياة من قطع صلتك بالله.

وفي كل صلاة يعود الإنسان من الكثرة إلى الواحد: كان موزعاً بين مطالب الناس، وخوف المستقبل، وندم الماضي، فإذا قال: «الله أكبر» أعاد ترتيب الأحجام. ليست الكلمة إعلاناً أن الله أكبر من شيء محدد فقط، بل أكبر من كل ما استولى على وعيه حتى بدا له كبيراً.

ثم أفرد الفجر: (وَقُرْآنَ الْفَجْرِ)؛ أي صلاة الفجر، وسميت قرآناً لمزية القراءة فيها. والفجر لحظة فريدة: الليل يتراجع، والكون يتهيأ لبداية جديدة، والنفس تخرج من شببيه الموت. في هذا الموعد يلتقي القرآن بقلب لم تملأه بعد ضوضاء النهار.

(إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا)؛ تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، كما صحت بذلك السنة. يا لها من كرامة: قد يقوم العبد إلى الفجر ولا يشعر به أحد في بيته، لكن صلاته مشهودة في الملاء الأعلى.

وكم يخدعنا مفهوم المشاهدة المعاصر! يظن الإنسان أن ما لم تصوره الكاميرا ولم يره الجمهور لا قيمة له. أما القرآن فينقل قلبه إلى شهود آخرين: قد تكون مجهولاً في الأرض، لكن دمعتك عند الفجر مشهودة، وقرءاتك الخافتة مسموعة، وخطوتك إلى الصلاة مكتوبة.

الفجر تدريب يومي على الانتصار على العاجلة. الفراش حاضر دافئ، وأجر القيام غيب موعود؛ فمن نهض قدّم ما عند الله على ما يضغط عليه الآن. وكأن كل فجر تمرين صغير على اختيار الآخرة.

الليل الذي يعيد الروح إلى صاحبها

قال الله تعالى: (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا) (الإسراء: ٧٩).

بدأت السورة بالإسراء ليلاً، وها هي تعود إلى الليل بوصفه زمن العروج التعبدي. في أولها أسرى الله بعبده، وهنا يأمر عبده أن ينهض إليه بالصلاة. كأن الليل هو المسافة السرية بين الألم والرفعة.

(وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ)؛ والتهجد صلاة الليل بعد نوم. أن تقاوم ثقل الجسد، وتغادر دفء الفراش، وتقف حين نامت العيون؛ ليس لأن الله يحتاج إلى عبادتك، بل لأن روحك تحتاج إلى أن تتحرر ساعةً من سلطان البدن والعادة.

في النهار يصنع الإنسان صورته أمام الناس، أما في الليل فيقف أمام حقيقته. لا جمهور، ولا تصفيق، ولا مكانة اجتماعية؛ عبد وربّه، وذنب يتذكره، ورجاء يرفعه، وقلب يحاول أن يتطهر من غبار اليوم.

ولهذا كان الليل مختبر الإخلاص. يستطيع المرء أن يتجمل في عبادته أمام الخلق، لكن من الذي يمثل على الناس وهم نائمون؟ ومن الذي يترك الراحة من أجل مشهد لا يراه إلا الله؟

غير أن قيام الليل ليس مجرد عدد ركعات؛ قد يقف الجسد ويبقى القلب نائمًا. التهجد الحقيقي أن تستيقظ داخليًا: أن تتخفف من أقنعة النهار، وأن تقول لله ما عجزت عن قوله لأحد، وأن تسلم إليه أحمالك بدل أن تعيد حملها إلى فراشك.

(نَافِلَةٌ لَّكَ)؛ زيادة في الفضل والقرب، وقد كان قيام الليل واجبًا في حق النبي ﷺ على قول طائفة من أهل العلم، أو نافلة زائدة له على الفرائض. وفي كل حال تربط الآية بين زيادة العبادة ورفعته المقام.

(عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا)؛ والمقام المحمود هو مقام الشفاعة العظمى يوم القيامة، حين يحمده الأولون والآخرين.

تأمل الصلاة: سجود في خفاء الليل، ومقام يحمده فيه الخلق أجمعون. من صدق مع الله حين لا يراه الناس، أظهر الله فضله في اليوم الذي يراه فيه الناس جميعًا. ومن طلب المقام عند الله في الخفاء لم يحتج إلى التسول عند أبواب الشهرة.

ولم يقل: مقامًا مشهورًا، بل محمودًا. الشهرة أن يعرفك الناس، والحمد أن تكون جديرًا بالثناء. قد يكون المرء مشهورًا بما يخجل منه، وقد يكون مجهولًا وهو عند الله محمود. المؤمن لا يطارده الضوء؛ يطارده العمل الذي يستحق نور القبول.

دعاء التحولات الكبرى

قال الله تعالى: (وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا) (الإسراء: ٨٠).

بعد الحديث عن محاولة إخراجهم من الأرض، يعلمه الله دعاء الدخول والخروج. وقد قيل في سياقه: إخراجهم من مكة وإدخاله المدينة، واللفظ أوسع في دلالته، يشمل كل انتقال يُراد له أن يكون محاطًا بالصدق.

(رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ)؛ لا أسأل دخولاً فحسب، بل دخولاً صادق النية، محمود البداية والعاقبة. فقد يدخل الإنسان مكاناً صحيحاً بقصد فاسد، أو يدخل مشروعاً نافعاً طلباً للسمعة، فتفسد النية ما صح من الصورة.

(وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ)؛ فالخروج يحتاج إلى أخلاق كما يحتاج إليها الدخول. يدخل بعض الناس العلاقات بلطف، فإذا انتهت خرجوا بالتشهير والجحود. ويدخلون المناصب بشعارات الخدمة، فإذا أُخرجوا كشفوا الأسرار وهدموا ما بنوه.

مخرج الصدق أن تغادر دون خيانة، وأن تحفظ الفضل ولو انتهى الطريق، وألا تجعل ألم النهاية مبرراً لتزوير البدايات.

وكم من إنسان يحسن الدخول ولا يحسن الخروج! يدخل الصداقة بقلب مفتوح، ثم يخرج منها حاملاً أسرار صاحبها سلاحاً. ويدخل المؤسسة طالباً للإصلاح، ثم إذا خالفوه خرج حاقداً على كل خير فيها. والصدق الكامل أن يظل خلقك حاكماً لك عند الوداع كما كان عند اللقاء.

هذا الدعاء يعلم المؤمن ألا يعتمد على حسن تخطيطه وحده. قد يرى الباب مشرقاً ولا يعلم ما وراءه، وقد يكره الخروج من موضع بينما تكون نجاته فيه. لذلك يسأل ربه أن يتولى هيئة الدخول والخروج، لا أن يحقق له مجرد رغبته.

ثم يقول: **(وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا)**. السلطان هنا حجة ظاهرة، أو قوة ونصرة يعينان على إقامة الحق، والمعاني متكاملة. فالحق يحتاج إلى برهان يحمله، وقوة تحمي إمكان ظهوره في الواقع.

إن القرآن لا يبني روحاً تهرب من القوة، بل يطلب قوة تأتي **(مِنْ لَدُنْكَ)**؛ أي موصولةً بالله، منضبطةً بحكمه. فالسلطان إذا انفصل عن العبودية صار طغياناً، والروحانية إذا انفصلت عن القدرة على حماية الحق قد تتحول إلى عجز يتزين بالصبر.

ولا يطلب النبي ﷺ السلطان لذاته، بل نصيراً للرسالة. وهنا الفرق بين من يريد المنصب ليكبر به، ومن يريده ليقوم به حقاً. الأول يسأل: ماذا سيضيف السلطان إلى صورتي؟ والثاني يسأل: ماذا أستطيع أن أنصر به من الحق؟

وفي فقه الاستخلاف لا تكفي نقاوة الفكرة إذا تركت بلا مؤسسات وقوة وعدالة تحملها. كما لا تنفع القوة إذا خلت من صدق الفكرة. تحتاج الأمة إلى «مدخل صدق» في مشروعها، و«مخرج صدق» من أخطائها، و«سلطان نصير» يحمي الحق دون أن يتحول إلى معبود جديد.

الباطل لا يهزم بالتجميل، بل بمجيء الحق

قال الله تعالى: (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) (الإسراء: ٨١).

يا لها من جملة تتحرك فيها الحقيقة! (جاء الحق)؛ فالحق ليس فكرة ساكنة في الكتب، بل قوة تأتي إلى الواقع، وتدخل الميدان، وتكشف الأشياء بأسمائها.

(وَزَهَقَ الْبَاطِلُ)؛ أي اضمحل وهلك وخرجت روحه. والزهوق يوحى بأن الباطل كان ينتفخ بصورة حياة ليست له؛ فلما حضر الحق انكشف أن داخله فراغ.

لم يقل: «وجاء الحق ليجادل الباطل إلى الأبد»، بل جعل مجيء الحق سبباً لزهوقه. فالظلمة لا تُحمل خارج الغرفة بأكياس؛ يكفي أن يأتي النور. غير أن النور لا يهزم الظلمة إذا بقي فكرةً عن الضوء؛ لا بد أن يُشعل.

وهكذا الحق: لا يكفي أن يكون محفوظاً في الخطب، بل ينبغي أن يتجسد في إنسان صادق، وقضاء عادل، واقتصاد أمين، وعلم نافع، ومؤسسات تحمي الضعيف. الباطل لا يخاف النصوص التي لا تغادر الرفوف؛ إنه يخاف النص حين يصير واقعاً.

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)؛ طبيعته الأصلية الزوال، وإن طال بقاءه في عين المستعجل. قد يبني قصوراً، ويرفع رايات، ويمتلك الإعلام والسلاح، لكنه يحمل داخله جرثومة فئائه؛ لأنه يصادم الفطرة والعدل وسنن الله.

ليس معنى ذلك أن الباطل يسقط بلا تضحية أو عمل؛ فقد يبقى زمناً بسبب ضعف أهل الحق، وتفرقهم، وقصور إعدادهم. لكن امتداد عمره لا يحوله إلى حق، كما أن طول الليل لا يجعله نهائياً.

وتطمئن الآية المظلوم: لا تجعل ضخامة الباطل الراهنة تعيد تعريفه في وعيك. هو باطل ولو صفق له الملايين، وزهوق ولو بدا راسخاً. قد لا تشهد عينك لحظة سقوطه، لكنك تستطيع ألا تسمح له بأن ينتصر داخل ميزانك.

القرآن: شفاء لا ينتفع به كل أحد بالطريقة نفسها

قال الله تعالى: (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) (الإسراء: ٨٢).

بعد مجيء الحق وزهوق الباطل، تسمى السورة أثر القرآن في النفس: شفاء ورحمة.

الشفاء يفترض مرضاً. والقرآن لا يجامل الإنسان بقوله إن كل ما فيه سليم، بل يدخل إلى مواضع العطب: كبره، وحسده، وخوفه، وشهوته، وتعلقه بالناس، واضطراب معنى الحياة في قلبه.

لكنه لا يكشف الجرح ليشمت به؛ يكشفه ليعالجه. وهذه هي الرحمة: أن ترى حقيقتك دون أن تدفع إلى اليأس، وأن تعرف مرضك ومعك وصفة العودة.

(وَنُنَزِّلُ)؛ بصيغة المضارع التي توحى بتجدد التنزيل في أثره وهدايته، مع أن نزول ألفاظ القرآن قد تم. ففي كل قراءة صادقة ينزل على القلب

من المعاني ما يناسب جرحه؛ تقرأ الآية مرات، ثم تمر بها في ظرف جديد، فكانها وصلت إليك الآن.

والقرآن شفاء من أمراض الشبهات وأمراض الشهوات؛ يصح التصور، ويهذب الميل. يشفي من وحشة الوجود حين يعرفك بربك، ومن عبثية الألم حين يضعه داخل حكمة الابتلاء، ومن تضخم الدنيا حين يفتح أمامك الآخرة، ومن استعباد الناس حين يردك إلى العبودية لله.

لكن الشفاء لا يعني أن الآية تُستخدم تعويذةً ميكانيكية منفصلةً عن الفهم والعمل. القرآن يُقرأ طلبًا للبركة والرقية، وهو شفاء بإذن الله، لكن من شفاء هدايته أيضًا أن تفهم أمره فتستجيب، وتعرف موضع المرض فتجاهد.

من يقرأ النهي عن الكبر ثم يستبقي كبرياه لا يصح أن يلوم الدواء. ومن يقرأ تحريم الظلم وهو مستمسك بمظالمه لم يدخل غرفة العلاج، وإن ردد اسم الشفاء.

(وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ)؛ الشفاء يزيل المرض، والرحمة تمنح فوق السلامة حياةً ونورًا وسكينة. ليس القرآن مجرد إخراج لك من الحفرة، بل إقامة لقدميك على الطريق بعد الخروج.

لكن القرآن نفسه: (وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا). ليس لأن في القرآن شرًا، بل لأنهم يقابلون النور بالإعراض، فتقوم عليهم الحجة ويزدادون بعدًا. كالشمس تنضج الثمرة، لكنها تزيد الجيفة فسادًا؛ الأثر يتصل بقابلية المحل.

والظالم قد يستخدم القرآن لتبرير ظلمه، يقطع آيةً من سياقها، أو يرفع شعاراً دينياً ليحجب فساداً سياسياً أو مالياً. وحينئذ لا يصبح القرآن أداة ظلمه في الحقيقة؛ بل يتحول تحريفه له إلى حجة إضافية عليه.

أشد الخسارة أن يحمل الإنسان كتاب الشفاء ويستخرج منه غطاءً لمرضه.

الإنسان بين نشوة النعمة وانهيار الضر

قال الله تعالى: (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا) (الإسراء: ٨٣).

ترسم الآية حركة نفسية متقلبة: إذا جاءت النعمة ابتعد، وإذا جاء الضر انهار. في الرخاء غرور، وفي الشدة يأس؛ لأنه لم يبين صلته بالله، بل بنى استقراره على الظروف.

(أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ)؛ لم يعرض بقلبه فقط، بل مال بجانبه واستكبر، كأن جسده كله يشارك في الابتعاد. النعمة التي كان ينبغي أن تقرّبه صارت حجاباً؛ لأنه نظر إليها ولم ينظر من خلالها إلى المنعم.

بعض الناس لا يكشفه الفقر، بل تكشفه السعة. حين كان محتاجاً بدا متواضعاً، فلما استغنى ظهر ما كان نائماً في داخله. النعمة لا تفسد دائماً، لكنها توسع مساحة ظهور النفس.

(وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا)؛ مرة أخرى يأتي «المس»، لكن الإنسان يتعامل معه كأنه نهاية الوجود. يفقد شيئاً فيظن أنه فقد كل شيء؛ لأن قلبه علق معنى الحياة بذلك الشيء.

اليأس ليس مجرد حزن؛ فالحزن شعور بشري وقع للأنبياء، أما اليأس فهو حكم على المستقبل بلا علم، كأن الإنسان يقول: لن يفتح الله بعد هذا باباً، ولن تتغير القصة. إنه يقرأ قدرة الله من داخل ضيق لحظته.

لماذا أعرض في النعمة ويئس في الضر؟ لأن علاقته بالله كانت ضعيفة في الحالين. لو عرفه في الرخاء لشكره، ولو عرفه في الشدة لرجاه. المعرفة بالله تصنع توازن النفس: لا تطغى إذا أُعطيت، ولا تتحطم إذا مُنعت.

إن الإيمان لا يمنعك من التألم، لكنه يمنع الألم من أن يتحول إلى تفسير شامل للكون. تبكي، لكنك لا تقول إن الرحمة انتهت. تتعب، لكنك لا تجعل التعب عقيدة. تضيق بك الأسباب، لكنك تعلم أن مسببها لم تضق خزائنه.

كل نفس تعمل على صورتها الباطنة

قال الله تعالى: **(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا)** (الإسراء: ٨٤).

هذه من أعمق آيات البناء النفسي: **(كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ)**؛ أي على طريقته وناحيته وسجيته وما يلائم تكوينه الباطن من نية ومعتقد وطبع.

العمل ليس حادثاً منفصلاً عن الداخل؛ إنه الثمرة المرئية لجذور خفية. الكلمة التي تخرج منك تحمل شكل قلبك، والقرار الذي تتخذه عند الفتنة يكشف ترتيب القيم داخلك.

يمكن للإنسان أن يتصنع عملاً صالحاً مرةً أمام الناس، لكن الشاكلة تظهر في التكرار، وفي الخلوة، وفي لحظة الضغط. حين تنهار الزينة الاجتماعية، يعمل كل إنسان على حقيقته الأقرب.

ومن هنا يبدأ الإصلاح من الداخل، لا من طلاء السلوك فقط. قد تمنع نفسك من الغضب مرةً بالقوة، لكن العلاج الأعمق أن تفهم الكبر أو الخوف الذي يغذيه. وقد تتوقف عن الإنفاق المسرف مؤقتاً، لكن الشفاء أن تعالج الفراغ الذي تحاول ملأه بالشراء.

القرآن لا يكتفي بتعديل الفعل، بل يعيد تشكيل «الشاكلة»: تصورك عن الله، ونفسك، والدنيا، والنجاح، والموت. فإذا استقام التصور خرج السلوك أكثر استقامةً بصورة طبيعية.

لكن الآية لا تقول إن الطباع قدر مغلق لا يتغير. الإنسان يولد باستعدادات متفاوتة، ويكتسب عادات، ثم يملك - بعون الله - أن يهذبها. الشجاع قد يحول شجاعته إلى عدوان أو نصرة، والحساس قد يحول رقيقته إلى رحمة أو إلى هشاشة، والطموح قد يجعله خدمةً أو عبادةً للذات.

الإيمان لا يمحو التفرد، بل يهديه. لا يريد من الناس نسخاً متطابقة، بل يريد لكل نفس أن تسخر شاكلتها في الطريق الأهدى.

(فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا)؛ لا تغتر بالمظهر، ولا تدع الإحاطة بدوافع الناس. الله وحده يعلم من كان أهدى سبيلاً، لأن الطريق ليس صورة الحركة وحدها، بل مقصدها وصدقها وما خفي من مجاهداتها.

قد ترى إنساناً بطيء السير فتحكم عليه، ولا تعلم أنه يصعد جبلاً داخلياً لا تراه. وقد ترى آخر سريعاً، وهو يسير في طريق منحدر. الحكم الكامل لله، والمطلوب منك أن تصلح شاكلك قبل أن تنشغل بتصنيف الخلق.

الروح: السر الذي يضع العقل عند حدوده

قال الله تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) (الإسراء: ٨٥).

بعد الحديث عن شاكلة الإنسان، يأتي السؤال عن أعرق أسرارهِ: الروح. ما هذه الحقيقة التي إذا حضرت صار الجسد إنساناً حياً، وإذا فارقه بقيت أعضاؤه كاملةً لكنه صار جسداً لا يملك أن يفتح عيناً؟

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ)؛ يسأل العقل عن السر الذي به يسأل. الروح حاضرة في كل تجربة إنسانية، ومع ذلك تعجز عن الإحاطة بكنهها. أنت لا تصل إليها من خارجك؛ هي أقرب حقائق وجودك إليك، ثم هي من أشدها غموضاً عليك.

(قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي)؛ رد العلم إلى الله، وبيّن أنها من شأنه وأمره مما استأثر بتفاصيل حقيقته. ليس الجواب هروباً من المعرفة، بل وضع للمعرفة في حدودها الصحيحة. يستطيع الإنسان أن يدرس آثار الروح وعلاقة الوعي بالجسد، لكنه لا يحيط بحقيقتها التي لم يطلعه الله عليها.

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)؛ جاءت «من» لتدل على أن ما أعطي الإنسان جزء يسير من بحر العلم. وكلما توسع العلم الصحيح، ازداد العالم الصادق إدراكاً لاتساع المجهول.

لقد بلغ الإنسان دقائق المادة، وصوّر خلايا الدماغ، ودرس الإشارات العصبية، لكن وصف الآلة لا يساوي الإحاطة بسر الوعي، وقياس الأثر لا يعني امتلاك حقيقة الروح. يستطيع أن يرصد تغيرات الجسد عند الحب والخوف، لكنه لم يحوّل الحب إلى رقم يستنفد معناه.

وهذه الآية لا تعادي العلم؛ بل تحرره من الغرور. هناك فرق بين أن تقول: لا أعلم بعد، وأن تقول: لا وجود لما لا أعلم. الأولى تواضع علمي، والثانية تحويل الجهل إلى عقيدة.

إن «لا أدري» ليست هزيمة للعقل، بل من أشرف انتصاراته حين تكون صادقة. العقل الذي يعرف حدوده أصدق من عقل يملأ الفراغ بالادعاء.

وفي الآية مواساة أيضاً: لست مضطراً إلى فهم كل سر كي تثق بربك. الطفل لا يفهم تفاصيل الدواء، لكنه يعرف يد أمه. والمؤمن قد لا يفهم حكمة كل قدر، لكنه يعرف من صفات ربه ما يجعله يطمئن إلى أن الغيب ليس فراغاً، بل علم محيط وحكمة بالغة.

خلاصة الفصل

حين يتأسس النصر في الخفاء

في هذا المقطع تبني السورة القوة من جذورها الخفية:

- الصلاة تعيد ترتيب الأحجام في النفس.
- الفجر يحرر القلب من سلطان الراحة العاجلة.
- التهجد يصنع الصدق بعيداً عن العيون.
- دعاء الدخول والخروج يطهر التحولات من الأهواء.

- السلطان النصير يجمع الحجة بالقوة.
- القرآن يشفي الداخل كي لا يعيد إنتاج الباطل في الخارج.
- فهم الشاكلة ينقل الإصلاح من قشرة الفعل إلى جذور النفس.
- والوقوف عند سر الروح يعلم العقل التواضع أمام علم الله.

هكذا لا يبدأ التمكين من العرش، بل من المحراب. ولا يولد السلطان النصير في يدٍ لم تتعلم أولاً أن تُرفع بالدعاء. فالذي لا يستطيع حكم نفسه عند الشهوة والغضب، لن يصنع عدلاً إذا حكم الناس.

ولذلك كان الليل سابقاً للمقام المحمود، والصلاة سابقةً لدخول المدينة، والشفاء سابقاً لمواجهة الباطل. إن الله لا يمنح صاحب الرسالة أدوات التأثير فقط؛ بل يبني في داخله الإنسان الذي لن تفسده الأدوات.

لكن القرآن الذي يشفي القلب هو نفسه نعمة يمكن لله أن يذهب بها لو شاء، ثم لا يملك البشر استعادتها. وهنا ستنقل السورة إلى بيان عظمة الوحي، وعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله، ثم تكشف أن تنوع الحجج لا يهدي قلباً يشترط على الله صورة الرسالة التي يريدها:

(وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ...).

الفصل التاسع

الْوَحْيُ: النِّعْمَةُ الَّتِي لَا يَمْلِكُهَا الْإِنْسَانُ

عظمة القرآن، وعجز الخلق، وشروط المتعنتين للهداية

قال الله تعالى: (وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ۝ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا) (الإسراء: ٨٦-٨٧).

بعد أن وصف الله القرآن بأنه شفاء ورحمة، يذكر نبيه ﷺ والأمة بأن الوحي ليس حقًا مكتسبًا يملكه الإنسان استقلالاً؛ إنه عطية يمكن للواهب أن يذهب بها لو شاء.

(وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)؛ اجتماع اللام ونون التوكيد الثقيلة يجعل المعنى شديد الحضور: إن بقاء القرآن بين أيديكم قائم على حفظ الله ورحمته، لا على قدرة البشر وحدهم.

والمقصود ببيان سلطان الله وامتنانه، فقد تكفل بحفظ كتابه؛ لكن الآية توقظ القلب من الاعتقاد. إن أخطر ما يصيب الإنسان مع النعمة الدائمة أن يتوهم دوامها حقًا طبيعيًا، فلا يعود يرى فضلها. يفتح المصحف متى شاء، ويسمع القرآن من عشرات الوسائل، حتى قد ينسى أن بين يديه كلام رب العالمين.

قد يوجد المصحف في كل بيت، ثم يكون الوحي غائبًا عن توجيه الحياة؛ فذهاب القرآن ليس مقصورًا في وعينا التربوي على غياب حروفه، بل قد يبتلى الناس بشيء من ذهاب أثره من قلوبهم: يتلون ولا يهتدون،

ويحفظونه ولا يتحاكمون إليه، ويتبركون بصوته ثم يختارون في أخلاقهم نقيضه.

وما أشد أن يبقى الكتاب في اليد، ويُسلب القلب مفتاحه!

(ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا)؛ لا أحد يطالب الله أن يعيد الوحي، ولا قوة تملك أن تنتزع منه كلمة واحدة. العلماء يحفظون، والكتّاب ينسخون، والمؤسسات تطبع، لكن الله هو الذي أنزل وحفظ ويسر.

ثم يستثنى: (إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ)؛ أي لكن أبقيناه رحمةً من ربك. القرآن في أصله رحمة قبل أن يكون تكليفاً؛ فالذي يأمرك وينهاك لا يريد أن يثقل عليك، بل ينقذك من الطريق الذي لا ترى نهايته.

(إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا)؛ أي فضل أعظم من أن يختارك الله لحمل كلماته إلى العالمين؟ المال ينتهي، والسلطان يتداول، والشهرة تتبدل؛ أما أن يجعل الله قلباً موضعاً لوحيه ولساناً لبلاغه فتلك منزلة لا تقاس بمقاييس الأرض.

وللأمة من هذا الفضل بقدر حملها للقرآن: فهماً وامتناناً وشهادةً على الناس. أما الانتساب إلى الكتاب من غير القيام بحقه، فليس شهادة امتياز بقدر ما هو زيادة في المسؤولية.

التحدي المفتوح

قال الله تعالى: (قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (الإسراء: ٨٨).

لا يتحدى القرآن فردًا معزولاً، بل يجمع الإنس والجن، ويمنحهم التعاون الكامل: (وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا). تتصافر العقول والطاقات واللغات، ثم تعجز عن الإتيان بمثله.

وليس إعجازه جمال عبارة منفصلاً عن المعنى؛ إنه هذا الالتحام الفريد بين البيان والهداية والتشريع والنظم والأخبار والقصص وبناء النفس والأمة، في كتاب نزل منجماً خلال سنوات الوقائع، ثم بقي متماسك الروح، يفسر بعضه بعضاً.

قد يستطيع البشر تقليد جملة ذات إيقاع، أو صناعة كلام يلبس مسحة قديمة؛ لكن التشابه السطحي لا يصنع قرآناً. كما يستطيع طفل أن يرسم دائرة تشبه الشمس، لكنه لا يمنحها ضوءاً ولا حرارة.

القرآن لا يدهشك بلفظة منفردة فقط، بل بطريقة وضعها في شبكة كاملة من المعاني. الكلمة فيه تؤدي وظيفة في السياق القريب، ثم تصل موضوع السورة، ثم تتجاوب مع مواضع أخرى، ثم تفتح أثراً نفسياً وتشريعياً دون تناقض.

(لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ)؛ حكم قاطع لا يضعف بمرور الزمن. وكلما اتسعت معرفة الإنسان باللغة والنفس والتاريخ، انفتحت له وجوه جديدة من التناسب، دون أن يستنفد النص.

والعجز ليس نقصاً في الذكاء البشري؛ فالقرآن نفسه يكرم العقل ويوقظه. لكنه الفرق بين كلام الخالق الذي يعلم الإنسان كله، وكلام المخلوق الذي يعرف جانباً ويجهل جوانب. الكاتب البشري يصف النفس من خارج خبرته المحدودة، أما خالق النفس فيخاطب طبقاتها التي لا تعرف هي أسماءها.

وفي عصر تتولد فيه النصوص آلياً وتنتج آلاف الصفحات في دقائق، تزداد الحاجة إلى فهم الفرق بين كثرة الكلام وحياة الكلام. يمكن تقليد الأنماط، لكن لا يمكن لصناعة بشرية أن تمنح نصاً مصدره الإلهي، ولا أن تحقق تحديه بمشابهة شكلية.

فالقرآن ليس مجرد ترتيب لغوي؛ إنه وحي.

تنوع البيان وقلب مصر على شرطه

قال الله تعالى: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) (الإسراء: ٨٩).

تعود كلمة (صَرَّفْنَا) التي وردت من قبل، لتؤكد تنوع طرق البيان. ضرب القرآن للناس من كل مثل يحتاجون إليه في الهداية؛ قرب المعقول بالمحسوس، والغيب بالمشهد، ومصائر الأمم بقصصها، وأحوال القلوب بصور يعرفها الإنسان في نفسه والكون.

لكن النتيجة المؤلمة: (فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا). لم يقل: جهلوا فقط، بل أبوا؛ والإباء قرار نفسي فيه رفض واستعلاء. جاءت الحجج إلى باب

القلب، لكنه لم يكن مغلقاً لغياب المفتاح؛ كان صاحبه يمسك الباب من الداخل.

(إِلَّا كُفُورًا)؛ كأنهم حصرُوا استجابتهم في الجحود، فلم يتركوا لأنفسهم احتمالاً آخر. وهذا وصف للعناد حين يتحول من موقف تجاه دليل إلى هوية يخشى صاحبها أن يتخلى عنها.

إن بعض الناس لا يسأل: ما الحق؟ بل يسأل: كيف أحمي الموقف الذي أعلنته من قبل؟ يخشى الاعتراف لأن صورته أمام أتباعه صارت أثمن عنده من نجاته أمام الله.

والمشكلة أن الكبرياء يجعل التراجع يبدو هزيمة، مع أنه قد يكون أعظم انتصارات الإنسان على نفسه. أن تقول «كنت مخطئاً» يعني أنك اخترت الحقيقة على صورتك، وهذه عبودية لا يقدر عليها إلا قلب حر.

حين يريد الإنسان أن يضع شروطاً على الله

قال الله تعالى: (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۚ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالَهُ وَالْمَلَائِكَةُ قَبِيلًا ۚ أَوْ يُكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا) (الإسراء: ٩٠-٩٣).

تنهال الطلبات: ينبوع، وجنة، وأنهار، وقطع من السماء، وإحضار الله والملائكة، وبيت من ذهب، وصعود إلى السماء، ثم كتاب شخصي ينزل إليهم.

ظاهرها طلب دليل، وباطنها رفض الانقياد. فالذي يريد الهداية تكفيه الحجة، أما المتعنت فيحوّل كل جواب إلى شرط جديد. لو فجرّ لهم ينبوعاً لطلبوا نهراً، ولو صعد إلى السماء لقالوا: لن نصدق حتى تنزل علينا كتاباً.

(لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى...)؛ جعلوا إيمانهم منّة يمنحونها للرسول إذا نفذ رغباتهم. لم يقولوا: دلنا على الحق، بل قالوا: أعد ترتيب الكون أمامنا بالطريقة التي نقتربها، ثم ننظر هل نؤمن.

وهنا يتحول الإنسان من عبدٍ يتلقى آيات ربه إلى متحكم يضع امتحاناً للخالق. يريد إلهاً يستجيب لشروطه، لا ربّاً يخضع هو لأمره.

(حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا)؛ بدأوا بمنفعة مادية. وكأن صدق الرسالة عندهم يقاس بقدرتها على إنتاج الماء لهم. ثم ارتفع سقف الطلب

إلى جنة خاصة للنبي ﷺ؛ فهم يربطون الحق بالشراء: لو كنت رسولاً لكان لك بيت من ذهب وبستان عظيم.

وهذا مرض لم ينتهِ؛ لا يزال كثيرون يقيسون قيمة الفكرة بحجم ثروة صاحبها، ويظنون أن الغنى برهان صواب، وأن الفقر علامة نقص. بينما جاء الأنبياء ليحرروا الإنسان من هيمنة هذه المقاييس.

(أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا مِثْقَالًا)؛ انتقلوا من المنفعة إلى التحدي بالعذاب. وهذه جرأة العاجل الذي يظن أن تأخر العقوبة دليل عدمها. يطلب النار ليختبر الخبر، كمن يضع يده في اللهب ليتأكد من صدق التحذير.

(أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا)؛ أي مقابلين عياناً، أو كفلاء يشهدون. تعالى الله عن مقاييسهم؛ ليس للعبد أن يطلب من ربه أن يحضر إلى محكمة هواه.

إنهم لم يعظموا الله، ولذلك تصوروا أن بإمكانهم اقتراح طريقة ظهوره وشهادته. والجهل بالله ليس نقص معلومات فحسب؛ إنه سوء أدب وجودي يجعل المخلوق يتحدث كأنه المركز، وكل ما سواه مطالب بإثبات نفسه له.

(أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ)؛ أي ذهب أو زخرفة بالغة. يريدون الرسول في صورة ملك مترف، لأنهم لا يتصورون العظمة إلا في الزينة. أما أن يمشي الرسول في الأسواق، ويأكل الطعام، ويحمل قلباً موصولاً بالله، فهذا فوق مقاييسهم المادية.

(أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ)؛ والمفارقة أن السورة بدأت بإسراء الله بنبيه ﷺ، وقد أراه من آياته ما هو أعظم من مطالبهم، لكن المعجزة تأتي بمشيئة الله ولحكمته، لا استجابةً لعبث المتعنتين.

ثم يقولون: (وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ نُنَزَّلَ عَلَيْنَا مِثَابًا نَفَرُوهُ). حتى لو رأوا الصعود لن يكفي! وهذا إقرار ضمنى بأن المشكلة لا تُحل بمعجزة؛ فالنفس المصممة على الرفض تستطيع دائماً اختراع شرط آخر.

ويأتي الجواب جامعاً للتنزيه وتحديد وظيفة الرسول: (قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا).

(سُبْحَانَ رَبِّي)؛ أنزّله عن أن يخضع لمقترحاتكم، أو يعجز عن شيء، أو تأتي آياته وفق أهوائكم.

(هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا)؛ لا أملك خصائص الربوبية.

(رَسُولًا)؛ وهذه البشرية ليست نفيًا للفضل، بل تحديد لوظيفة البلاغ والافتداء.

جمع ﷺ بين البشرية والرسالة: بشر كي يمكنكم اتباعه، ورسول كي لا تجعلوا بشريته مبررًا لرد وحيه. لو كان ملكًا لقالوا: كيف نفتدي بمن لا يجوع ولا يشتهي ولا يتعب؟ فجاءهم بشرًا يعيش ما يعيشون، ثم يريهم كيف تعبر العبودية داخل الطبيعة البشرية.

الشبهة التي حجت البشر عن الرسالة

قال الله تعالى: (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۝ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا) (الإسراء: ٩٤-٩٥).

(إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ)؛ الهدى لم يكن بعيداً، بل جاءهم حتى وقف أمامهم. ومع ذلك منعهم تصورهم المسبق: (أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا)؟

استبعدوا أن يحمل المطلق رسالته إلى الناس عبر بشر. وربما كان وراء الاعتراض حسد خفي: لماذا اختير هذا الإنسان من بيننا؟ فالناس قد يقبلون الفكرة إذا جاءت من بعيد، ثم يرفضونها حين يحملها شخص يعرفون بيته ونسبه؛ لأن قربه يجرح توهمهم أن الاصطفاء يجب أن يمر عبر مقاييسهم.

إن البشرية في الرسول ضرورة تربوية. فالرسالة ليست معلومات ترسل من السماء فقط، بل نموذج حياة: كيف يصبر الإنسان حين يؤذى، ويعدل حين يقدر، ويرحم حين يغضب، ويعبد الله داخل الجسد والزمن والأسرة والسوق؟

لو كان أهل الأرض ملائكةً يمشون مطمئنين، لأنزل الله عليهم ملكاً رسولاً؛ إذ يوافق المرسل إليهم في طبيعتهم ويقدر على الاقتداء به. أما البشر فيحتاجون رسولاً بشرياً يثبت أن التكليف ممكن في حدود طبيعتهم.

وهنا درس لكل مصلح: لا تحاول تقديم نفسك ككائن فوق البشر. قوتك ليست في ادعاء عدم الضعف، بل في صدق مجاهدته. الناس لا يحتاجون

نموذجًا مزيّفًا لا يخطئ في شؤونه البشرية، بل يحتاجون إنسانًا صادقًا يعود إذا أخطأ ويثبت حيث يجب الثبات.

شهادة الله تكفي من عرفه

قال الله تعالى: (قُلْ كَفَىٰ بِاللّٰهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا) (الإسراء: ٩٦).

بعد مطالباتهم بالشهود والآيات المقترحة، يرد النبي ﷺ الأمر إلى الشاهد الأعلى: (كَفَىٰ بِاللّٰهِ شَهِيدًا).

من عرف صدقه أمام الله لم ينهر لأن الناس اتهموه. وهذا لا يعني الاستغناء عن بيان الحجة أو تصحيح الخطأ، بل يعني ألا يجعل حكم الجمهور مصدر وجوده النفسي.

قد تشهد لك السمعة اليوم ثم تنقلب غدًا، وقد بيني الناس حكمهم على مقطع مبتور، أو رواية يكررها الأقوى. أما شهادة الله فمبنية على علم لا ينقص: (إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا).

خبير بالبواطن الخفية، بصير بالأعمال الظاهرة. يعلم لماذا تكلمت، وماذا قصدت، وما الذي خسرت كي لا تخون. كما يعلم الزيف الذي اختبأ خلف أجمل العبارات.

والعبد يحتاج إلى هذا المعنى كي يثبت، لكنه يحتاج معه إلى الخوف: فالله الذي يشهد بصدقك إذا صدقت، يشهد عليك إذا استعملت شعار الحق ستارًا لنفسك. لا تستطيع خداع الشاهد الذي يعلم ما في الصدر.

الهداية ليست معلومةً تملكها، بل منحة تستبقيها

قال الله تعالى: (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِّيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا) (الإسراء: ٩٧).

(وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ)؛ هو المهتدي حقًا، لا من أثنى الناس على فكره، ولا من ورث انتماءً صالحًا دون أن يحيا به. والهداية من الله، لكنها تُطلب بصدق، ويُفتح لها القلب، ويؤخذ بأسبابها؛ أما من أعرض بعد البيان، فقد يعاقبه الله بأن يتركه لما اختار.

ولهذا لا يغتر المهتدي بنفسه. لا يقول: وصلت بذكائي، بل يحمد الله أن أنقذه من احتمالات الضلال التي كان يمكن أن يقع فيها. يرى المنحرف فيخاف على نفسه ويدعو له، لا يتخذه منصّةً لتعظيم ذاته.

(وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ)؛ من خذله الله لعناده لا يستطيع أحد أن يضع النور في قلبه استقلالًا. قد يحيط به الناصحون، لكن الهداية لا تدخل قلبًا يتخذ من نصائحهم مادةً لمزيد من السخرية.

ثم يأتي مشهد الحشر: (عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ)؛ أذلةً مقلوبين عن هيئة الكرامة. والرسول ﷺ أخبر أن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم.

(عُمِّيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا)؛ حُشروا على الصورة التي اختاروها معنويًا في الدنيا: أعرضوا عن رؤية الحق، وامتنعوا عن النطق به، ولم يسمعوا سماع قبول. فظهر باطنهم في هيئة محسوسة.

إن الآخرة يوم تتجسد فيه الحقائق الداخلية. الكبر الذي لم يكن يُرى يصبح ذلًّا ظاهرًا، والعمى المعنوي يصير صورةً للحشر، والأعمال التي ظنها الناس هواءً تصبح كتابًا وميزانًا.

(كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا)؛ كلما سكن لهبها أو قارب، أعيد اشتعاله عليهم. كانوا في الدنيا يظنون أن كل أزمة تنتهي بالنسيان، وأن بوسعهم الإفلات إذا طال الزمن؛ لكن عذاب الآخرة لا يدخل في نظام الفناء الدنيوي.

وهذا الوعيد ليس دعوةً للشماتة، بل إنذار للنفس. المؤمن لا يقرأ النار ليبحث عن يضعه فيها، بل ليبحث عن الطريق الذي يبعده عنها.

الجزاء من جنس إنكارهم

قال الله تعالى: (ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا) (الإسراء: ٩٨).

يعيد القرآن عبارتهم السابقة؛ لأن الكلمة لا تختفي بعد خروجها. قد يقولها الإنسان ساخرًا في مجلس وينساها، ثم يجدها مثبتةً في بيان مصيره.

(ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا)؛ الجزاء مرتبط بسبب أخلاقي ومعرفي: لم يُعذبوا بلا بيان، بل جاءت الآيات فكفروا، وجاء البرهان فاختاروا السخرية.

وتكرار قولهم عن العظام والرفات يكشف أن إنكار الآخرة لم يكن تفصيلًا هامشيًا؛ لقد أعاد تشكيل سلوكهم. من استبعد البعث عاش كأن الجرائم تموت بموت أصحابها، وكأن المظالم التي لم يعالجها قضاء الأرض قد ضاعت.

أما الإيمان بالبعث فيحفظ للكون معناه الأخلاقي. فالطفل الذي مات مظلوماً له يوم، والطاغية الذي أفلت من المحكمة له يوم، والخير الذي لم يجد جزاءً هنا له يوم. من دون الآخرة تبقى قصص كثيرة مفتوحة على عبث مؤلم، وبها نعلم أن العدل مؤجل لا ملغى.

السموات والأرض دليل على إعادة الإنسان

قال الله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا) (الإسراء: ٩٩).

يرفعهم القرآن من النظر إلى عظامهم الصغيرة إلى النظر في السموات والأرض. من خلق هذا الامتداد الهائل، أفيعجز عن إعادة جسد الإنسان؟

(أَوَلَمْ يَرَوْا)؛ الرؤية هنا رؤية تفكر واعتبار. فالكون أمام الجميع، لكن ليس كل من نظر رأى. قد يحصي الإنسان النجوم ولا يرى دلالتها، كما يحصي حروف الكتاب ولا يقرأ معناه.

إن خلق السموات والأرض أكبر في تقدير البشر من خلقهم؛ فمن أقر بالأعظم ثم أنكر ما دونه ناقض نفسه. والقرآن لا يطالب العقل بإلغاء قوانينه، بل يدعو إلى تطبيقها بلا تحيز: القدرة التي ثبت منها الإنشاء الأعظم لا تستبعد منها الإعادة.

(وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ)؛ الأجل قد يكون أجل موتهم، أو أجل البعث والجزاء، والمعنى يحتمل انتظامهما في الموعد الذي لا يتخلف. لكل قصة نهاية محددة في علم الله، وإن جهل صاحبها متى تطوى الصفحة.

والإنسان يحب تأجيل التفكير في الأجل؛ لأنه يشعر أن ذكره يفسد لذته. لكن الموت لا يفسد الحياة الصادقة، بل ينقذها من التبدد. حين تعرف أن الوقت محدود، تصبح الكلمة أثمن، والصلح أعجل، والعمل الصالح أولى من المعارك الصغيرة.

(فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُّورًا)؛ عادت كلمة الإباء لتبين أن الحجة ليست موضع الأزيمة الأخير. السماوات فوقهم، والأرض تحتهم، وخلقهم داخلهم؛ ومع ذلك أبوا. لأن الظلم إذا استقر في السلوك احتاج إلى تصور يحميه، وإنكار الحساب أفضل ستار للظالم.

إنهم لا ينكرون الآخرة فقط لأنهم لم يروها؛ بل لأن الاعتراف بها يهدد نظام حياتهم. الفكرة قد تكون خادمة للسلوك، لا قائده؛ فيختار الإنسان من التصورات ما يسمح له أن يبقى كما هو.

الإنسان الذي يخشى نفاد الخزائن

قال الله تعالى: **(قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَثُورًا) (الإسراء: ١٠٠).**

بعد ذكر قدرة الله على الخلق والبعث، تكشف السورة الفرق بين سعة الله وضيق النفس البشرية.

(لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي)؛ خزائن لا تنفذ، ورحمة وسعت كل شيء، ومع ذلك لو وُضعت مفاتيحها في أيدي النفوس الشحيحة **(لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ).**

ليس خشية النفاذ الواقعي، فالخزائن خزائن رحمة الله، ولكن طبيعة الإنسان الخائفة تجعله يتوهم النقص حتى أمام اللامحدود. يمسك لا لأنه يحتاج إلى كل ما عنده، بل لأن فكرة العطاء تنثير فيه خوف فقدان السيطرة.

(وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا)؛ شديد الإمساك والتضييق. وقد رأينا في السورة من قبل صورة اليد المغلولة إلى العنق؛ وها هنا يتضح الجذر النفسي للبخل: خوفٌ عميق من المستقبل، وسوء ظن بمصدر الرزق، وشعور أن ما خرج من اليد خرج من الوجود كله.

البخل لا يعيش فقط مع قلة العطاء، بل مع قلة الإحساس بسعة الله. يرى المال محدودًا - وهو محدود - لكنه لا يرى رحمة الرازق التي لا تحدها الأرقام.

ويدخل في معنى الخزائن كل ما يمنحه الإنسان: المال، والعلم، والوقت، والتقدير، والكلمة الطيبة. قد يبخل شخص بالثناء كأن نجاح الآخرين ينقص من قيمته، أو يحجب معلومة نافعة ليظل متفردًا، أو يرضن بالرحمة على مخطئ كأنه هو صاحب خزائن المغفرة.

ومن عرف أن الفضل لله لم يخف أن يفرح بفضل غيره. يعلم أن الله حين يرفع إنسانًا لا ينفد ما عنده، وحين يرزق قلبًا محبةً لا يسلب قلوبًا أخرى قدرتها على الحب.

والآية تعلم صاحب السلطة خصوصًا أن الموارد التي بين يديه ليست ملكًا نفسيًا له. قد يمسك حقوق الناس خوفًا على خزائن الدولة، ثم ينفق أضعافها على مظاهر قوته. فالمشكلة ليست دائمًا في قلة المال، بل في ميزان القلب الذي يقرر أين يُمسك وأين يبذر.

خلاصة الفصل

القلب المتعنت لا تنقصه المعجزة، بل تنقصه العبودية

في هذه الآيات واجه القرآن ثلاثة أوهام كبرى:

الوهم الأول: أن الوحي شيء يملكه الناس؛ فردّهم إلى رحمة الله التي أنزلته وحفظته.

والوهم الثاني: أن المشكلة في قلة الأدلة؛ فكشف أن المتعنت ينتقل من شرط إلى شرط، ولو صعد الرسول أمامه إلى السماء.

والوهم الثالث: أن الإنسان أقدر على تدبير الخير من ربه؛ فكشف أنه لو امتلك خزائن الرحمة لأمسكها خوفاً من النفاذ.

وهكذا يتبين أن الإيمان ليس انبهاراً بالخارق وحده. قد يرى الإنسان الآية ثم يطلب غيرها، لأن قلبه لم يتعلم مقام العبودية. أما القلب الصادق فيقرأ أثر القدرة في السماء والأرض، وأثر الرحمة في الوحي والرزق، ويعلم أن الله لا يحتاج إلى أن يؤدي عرضاً خاصاً كي يستحق الإيمان به.

إن القرآن لا يرفض السؤال؛ بل بنى آياته على إيقاظ العقل. لكنه يميز بين سؤال يطلب الحقيقة وسؤال يطلب تأجيلها، بين من يقول: أرني لأهتدي، ومن يقول: نفّذ شروطي وإلا فلن أؤمن.

وما أضيق الإنسان حين يجعل عقله المحدود محكمةً لرب العالمين، وما أوسع حين يعرف حدّه! عندها لا يفقد العقل، بل يتحرر من الغرور،

وينفتح على علم أكبر منه، ورحمة لو ملك خزائنها لبخل بها، لكن الله يفيضها على خلقه ليلاً ونهاراً.

وبعد كشف ضيق الإنسان أمام خزائن الرحمة، ستعود السورة إلى موسى وفرعون: نبي يحمل تسع آيات بينات، وطاغية لا يرى في النور إلا تهديداً لعرشه. وهناك يتجلى الفرق بين سلطان الحجة وسلطان الخوف، وبين من أراد اقتلاع المؤمنين من الأرض فاقتلعتة السنن:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ...).

حين يغرق الطغيان، ويبقى الوعد، وينزل القرآن على مكث

قال الله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا) (الإسراء: ١٠١).

اقتربت السورة من خاتمتها فعادت إلى موسى عليه السلام، الذي ذكرته في مطلعها. بدأت قصته هناك بالكتاب وما جرى لبني إسرائيل من فساد وعقوبة، وها هي تعود هنا إلى اللحظة التي وقف فيها موسى أمام فرعون.

إنه بناء دائري محكم: من المسجد الأقصى وكتاب موسى، إلى القرآن ومحمد ﷺ، ثم إلى موسى مرة أخرى؛ لتلتقي الرسائل في مواجهة واحدة بين الوحي والاستكبار.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ)؛ وهي الآيات المعروفة التي أيده الله بها، كاليد والعصا وما جاء من الآيات والعقوبات المفصلة. وسميت بينات لأنها واضحة الدلالة، لا يلتبس صدقها على من طلب الحق.

لكن فرعون لم يقل: لم أفهم، بل قال: (إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا). وهي التهمة نفسها التي واجه بها مشركو مكة النبي ﷺ في هذه السورة: (إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا). تتغير الأزمنة، لكن قاموس الباطل فقير؛ يكرر التهم نفسها كلما عجز عن مقارعة الحجة.

فرعون أمام تسع آيات، ومع ذلك يلجأ إلى تشويه حاملها. وهذا يؤكد الحقيقة التي تكررت في السورة: ليست كل مشكلة إيمانية مشكلة دليل؛ فقد يكون الدليل بيّنًا، لكن الاعتراف به يهدد العرش.

لو قال فرعون: موسى صادق، لم يكن ذلك تصحيحًا لفكرة في رأسه فقط، بل إسقاطًا لنظام كامل بنى عليه سلطته. كان عليه أن يعترف بأنه عبد لا رب، وأن بني إسرائيل بشر لا ملكية خاصة، وأن القوة التي يملكها أمانة لا ألوهية.

ولهذا اختار التهمة. فالطاغية لا يناقش الحقيقة التي تهدد سلطانه؛ يحاول أن يجعل قائلها هو المشكلة. مرةً يسميه ساحرًا، ومرةً مسحورًا، ومرةً مفسدًا، ومرةً عميلًا؛ المهم أن تتحول الأنظار من مضمون الرسالة إلى شخص الرسول.

وفي كل عصر توجد سلطات تخشى السؤال أكثر من الجريمة؛ لأن الجريمة الفردية لا تهدد بنيتها، أما السؤال الصادق فقد يكشف أن الهيبة قائمة على وهم.

(فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ)؛ أي إن القصة ليست دعوى بلا شاهد؛ آثارها محفوظة في التاريخ والذاكرة. والقرآن لا يخشى الفحص؛ لأنه يخاطب الإنسان بالحجة، ويدعوه إلى السؤال الذي يطلب المعرفة، لا السؤال الذي يصنع مخرجًا من الاستجابة.

اليقين الذي يرى سقوط الطاغية قبل سقوطه

قال الله تعالى: (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا) (الإسراء: ١٠٢).

يواجه موسى فرعون بالحقيقة التي يخفيها: (لَقَدْ عَلِمْتَ). ليست القضية أنك لم تعرف؛ أنت تعلم في داخلك أن هذه الآيات لا يقدر عليها إلا رب السماوات والأرض.

قد ينكر اللسان ما استيقنه القلب، كما قالت آية أخرى: (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا). وهذه أخطر صور الضلال؛ لأن الجاهل يمكن أن يتعلم، أما من عرف ثم جحد فقد جعل إرادته خصمًا لمعرفته.

إن النفس تستطيع أن تعيش انقسامًا عجيبًا: تعرف الحق في منطقة عميقة منها، ثم تبني فوقه طبقات من التبرير حتى لا تسمع صوته. ترفع شعارات لا تؤمن بها تمامًا، وتدافع عن مواقف تعرف هشاشتها؛ لأن الاعتراف صار مكلفًا.

(مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)؛ يواجه موسى من قال: (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) برب السماوات والأرض. فرعون يملك رقعة صغيرة من الأرض زمنًا محدودًا، ثم يتكلم بلسان الألوهية. أما موسى فيربطه فجأة بحجمه داخل الكون.

وهكذا يفعل التوحيد بالطغيان: لا يبدأ بمقارنة عدد الجنود، بل يهدم الوهم الذي يمنح الطاغية حجمًا أكبر من حقيقته. حين تعلم أن الله رب السماوات والأرض، لا يعود فرعون إلا عبدًا متمرّدًا تحيط به قدرة الله من كل جهة.

(بَصَائِر)؛ لم يسمّها مبصرات فقط، بل بصائر؛ لأنها تمنح القلب أسباب الإبصار. الآية الخارجية لا تكفي وحدها، بل ينبغي أن تتحول إلى بصيرة داخلية. وكم من إنسان يرى آلاف العلامات، ولا يولد منها في قلبه معنى واحد!

ثم يقابل موسى التهمة بالتشخيص الحقيقي: (وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا)؛ أي هالكا مصروفًا عن الخير. قال فرعون: مسحور، وقال موسى: مثبور. لكن بين القولين فرقًا: قول فرعون افتراء للدفاع عن سلطانه، وقول موسى حكم مستند إلى الوحي والآيات ومسار الطغيان.

وموسى يومها لا يملك في الظاهر جيشًا يوازي جيش فرعون، ومع ذلك يخاطبه من موضع القوة اليقينية. صاحب الحق قد يكون أضعف أدوات، لكنه يرى النهاية من خلال سنن الله. أما الطاغية فيبدو قويًا، وهو يحمل عوامل هلاكه في داخله.

(مَثْبُورًا)؛ لم يقل فقط إنك ستُهزم في معركة، بل إن مشروعك نفسه مقطوع عن الخير، ماضٍ إلى الهلاك. فالقوة التي تنفصل عن الحق قد تطول، لكنها لا تنتج مستقبلًا صالحًا؛ إنها تبني قبرها بما تبني من مظالم.

من أراد اقتلاعهم من الأرض اقتلع

قال الله تعالى: (فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ۝ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا) (الإسراء: ١٠٣-١٠٤).

تتكرر كلمة الاستفزاز. قال الله عن مشركي مكة: (وَأِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ)، وهنا يقول عن فرعون: (فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ).

إنها سنة الطغيان نفسها: حين يعجز عن تغيير ضمير المؤمن، يحاول تغيير مكانه؛ يخرج، أو يسجنه، أو يضيق عليه حتى يشعر أن الأرض لم تعد تتسع لوجوده.

لكن الأرض ليست ملك فرعون، وإن رسم حدودها ووزع مناصبها. والذي قال: اخرجوا منها، أخرج هو من الحياة كلها: (فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا).

ما أقصر المسافة القرآنية بين إرادته وفنائه! (فَأَرَادَ... فَأَغْرَقْنَاهُ). حذف القرآن تفاصيل كثيرة بينهما ليجعل النهاية كأنها جاءت في أثر النية مباشرة؛ فالطغيان حين يبلغ تمامه يختصر الطريق إلى سقوطه.

أراد فرعون أن يجعل البحر أو الأرض حاجزًا أمام حرية بني إسرائيل، فجعل الله البحر نفسه طريقًا للمؤمنين وقبرًا للطاغية. الأداة واحدة، لكن موقع الإنسان من الله غير وظيفتها: ماء يفتح الطريق لهؤلاء، ويغلق الحياة على أولئك.

والبحر الذي ظنناه في الآيات السابقة موضع خوف الإنسان، صار هنا جندياً من جنود العدل الإلهي. ليس في الوجود شيء مستقل بوظيفته عن أمر الله؛ قد يصير موضع الخطر نجاةً، ويصير موضع القوة هلاكاً.

(وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا)؛ لأن منظومة الطغيان لا يصنعها فرد وحده. هناك من يخطط، ومن ينفذ، ومن يبرر، ومن يجمّل الجريمة، ومن يصمت صمتاً يشترى به نصيبه من السلامة. ولكلّ درجته ومسؤوليته، ولا يُسَوّى بينهم إلا بحق، لكن الآية تذكر أن الوقوف مع الطغيان ليس منطقةً آمنة لمجرد أن الشخص لم يجلس على العرش.

ثم جاء ما لم يردده فرعون: (وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ). أراد إخراجهم منها، فصار غرقه مقدمةً لسكرتهم. وهكذا قد يكون أشد ضغط يوجهه الباطل إلى المؤمنين هو الحركة الأخيرة التي تسبق انفتاح الطريق.

لكن التمكين لا يعني امتلاكاً مطلقاً للأرض، ولا براءةً أبديةً من الحساب. فقد بدأت السورة بذكر فساد بني إسرائيل بعد الكتاب والتمكين. فالذين كانوا مظلومين أمام فرعون يمكن أن يتحول بعض أعقابهم إلى ظالمين إذا نسوا عهد الله.

هذه من أعظم قواعد القرآن: المظلومية السابقة لا تمنح عصمةً لاحقة. لا يكفي أن يكون تاريخك مليئاً بالألم كي يكون حاضرك عادلاً. أنت تُحاسب على ما تفعل الآن، لا على ما فعل بأسلافك وحدهم.

(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا)؛ أي مجموعين من جهات شتى للحساب. فالانتشار في الأرض لا يلغي موعد الجمع، واختلاط الأنساب والجماعات لا يضيع فرداً من علم الله.

كل مشاريع البشر تنتهي إلى هذا الجمع. يتفرقون في القارات، ويتميزون بالأسماء، ويقيمون الحدود والأسوار، ثم يأتي وعد الله فيجتمعون في ساحة لا تمنح فيها الجنسية حصانة، ولا القوة امتيازاً.

بالحق نزل، وبالحق بقي

قال الله تعالى: (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) (الإسراء: ١٠٥).

بعد قصة الآيات البيّنات ومصير فرعون، تعود السورة إلى القرآن: (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ).

الحق أحاط بالقرآن من مبدئه إلى منتهاه. أنزله الله متلبساً بالحق في مصدره وقصده، ونزل محفوظاً بالحق لا تختلط به أهواء الشياطين ولا تحريفات البشر.

إنه حق في أخباره؛ فلا كذب.

وحق في أحكامه؛ فلا جور.

وحق في مقاصده؛ فلا عبث.

وحق في أثره؛ إذ يقيم الميزان ويكشف الباطل.

وتكرار (بِالْحَقِّ) ليس زيادة لفظية، بل إحكام لحركة الوحي: حق عند الله، وحق في طريق النزول، وحق حين استقر في قلب الرسول ﷺ. لم يصبه في انتقاله ما يصيب رسائل البشر من نقصان وتبديل.

وفي مقابل حق الوحي تأتي حدود وظيفة الرسول: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا). يبشر من استجاب، وينذر من أعرض؛ يجمع الرجاء والخوف كما جمعت السورة بين رحمة الله وعذابه.

ليس التبشير مخدرًا يجعل الإنسان يأمن وهو مقيم على الظلم، ولا الإنذار سوطًا نفسيًا يدفعه إلى اليأس. التبشير يفتح له الطريق، والإنذار يمنعه من النوم على حافته.

والداعية الذي لا يحمل إلا الوعيد قد يصنع قلوبًا مذعورة لا تعرف محبة الله، والذي لا يحمل إلا البشارة المنفصلة عن التكليف قد يصنع نفوسًا مستهينة. والرسالة الكاملة تجعل الإنسان يرجو حتى لا يقنط، ويخاف حتى لا يغتر.

القرآن الذي ينزل على زمن التربية

قال الله تعالى: (وَقَرَأْنَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا) (الإسراء: ١٠٦).

لم ينزل القرآن جملةً واحدة، بل فرقّه الله ونزله منجمًا خلال الوقائع والسنوات: (لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ).

والمُكْث هو التؤدة والتمهل. فالإنسان لا يُبنى في لحظة، وإن فهم الفكرة في لحظة. قد تدخل الحقيقة عقله سريعًا، لكنها تحتاج زمنًا حتى تعيد تشكيل عاداته واستجاباته ومخاوفه.

كان القرآن ينزل فيجد واقعةً فيفسرها، وجرحاً فيضمده، وسؤالاً فيجيب عنه، وانحرافاً فيقومه، ونصرًا فيعلم الأمة كيف تستقبله، وهزيمة يكشف أسبابها. لم يكن نصًا بعيدًا عن الحياة، بل كان يصاحب خطوات الجماعة المؤمنة وهي تنمو.

وهذا درس لكل مشروع إصلاحى: لا تتوقع أن تتحول النفوس لمجرد أنك ألقى عليها خطابًا بليغًا. التربية ليست صدمة عاطفية عابرة، بل معنى يتكرر، ويُمْتَحَن في الواقع، ويُصَحَّح بعد الخطأ.

(عَلَى مُكْثٍ)؛ تقرأه بتمهل، ليأخذ كل معنى حقه من الفهم والتشرب. لا تجعل غايتك الوصول إلى نهاية الصفحة، بل وصول الآية إلى نهايتك الداخلية التي تحتاج إلى تغيير.

قد يختم الإنسان القرآن مرات، لكنه لا يسمح لأية واحدة أن تنهي عادةً فاسدة فيه. والعبرة ليست كم مرة مررت على القرآن، بل كم مرة مر القرآن على قلبك فغير تضاريسه.

وفي عصر السرعة، تُستهلك الكلمات قبل أن تنتضج. يقرأ الإنسان عشرات المقاطع في دقائق، ثم لا يبقى في روحه شيء. أما القرآن فيطلب «المكث»: أن تتوقف، وتعيد، وتسأل، وتربط، وتصمت أمام ما لا يحتمل العجلة.

إن العجلة التي وصفتها السورة في أولها: (وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا)، يعالجها هنا النزول على مكث. فكما تدرج الوحي في بناء الجيل الأول، يحتاج المؤمن إلى صبر على بناء نفسه: لا ييأس لأن عادةً لم تتغير في أسبوع، ولا يترك الطريق لأنه لم يبلغ مقام المحسنين في خطوتين.

(وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا)؛ المصدر يؤكد أن التنزيل كان مقصودًا مضبوطًا مقدرًا. لم يتفرق القرآن لعجز، بل لحكمة؛ ولم يتأخر بعضه عن بعض نسيانًا، بل نزل كل جزء في موضعه وزمنه الذي يحقق غايته.

إن رب القرآن هو رب المراحل. فلا تحتقر مرحلة الإعداد لأنك تتوق إلى النتيجة، ولا تقتلع البذرة كل يوم لترى هل نمت. بعض أعظم أعمال الله فيك يحدث في الخفاء، على مكث.

الذين يعرفون الوحي يسجدون حين يسمعون

قال الله تعالى: (قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا) (الإسراء: ١٠٧-١٠٩).

(قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا)؛ ليست تسوية بين الإيمان والكفر، بل إعلان لاستغناء القرآن عن تصديقهم. الحق لا يصبح حقًا بإيمانهم، ولا يفقد حقيقته بكفرهم.

إنهم يظنون أنهم يمنحون القرآن قيمةً إذا قبلوه؛ فيقول لهم الله: مصيركم أنتم هو المعلق بموقفكم منه، أما القرآن فحق قبل أن تولدوا وبعد أن تموتوا.

ثم يقدم نموذجًا آخر: (إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ)؛ من أهل الكتاب الصادقين الذين عرفوا دلائل الوحي وبشاراته، فلما سمعوا القرآن لم يروا فيه غريبًا عن أصل النبوات، بل وجدوا الوعد الذي كانوا ينتظرونه.

(إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا). لم يقل: يسجدون فقط، بل يَخِرُّون؛ والسقوط إلى السجود يوحي بأن جلال الحقيقة غلب مقاومة الجسد، فسقطت المسافة بين المعرفة والخضوع.

وخصّ الأذقان للمبالغة في التمكين من الأرض؛ فالوجه الذي كان مرفوعاً بالنظر والعلم يهبط لله تواضعاً. وهذا هو العلم حين يصح: لا يرفع صاحبه فوق العبودية، بل يعرفه بعظمة من يعبد.

العلم الذي يزيد صاحبه كبيراً ربما زاد معلوماته ولم يفتح بصيرته. فالثمرة القرآنية للعلم ليست أن تقول: أنا أعرف أكثر؛ بل أن تسجد أصدق.

(وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا)؛ بدأت السورة بالتسبيح، وها هم أهل العلم ينطقون به في ختامها. كأن الرحلة كلها خرجت من «سبحان» وعادت إليها.

نزه الله نفسه في أول السورة عن عجز أو نقص، ونزّهه المؤمنون هنا عن إخلاف وعده: (إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا)؛ أي إن وعده كان حتماً واقعاً.

كانوا قد عرفوا الوعد في الكتب، فلما جاء القرآن رأوا تنفيذه. والمؤمن يعيش بين وعدٍ تحقق في التاريخ ووعدٍ ينتظر تحقيقه في المستقبل؛ وكل وعد سابق وفي الله به يزيد قلبه يقيناً بما لم يأت بعد.

ثم يعاد وصف سجودهم: (وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ). تكرار الخروار ليس تكراراً للمشهد بلا زيادة؛ في الأولى سجدت أجسادهم للمعرفة، وفي الثانية ظهرت حياة قلوبهم بالبكاء. السجود هيئة، والدمعة روح تسري فيها.

لكن البكاء في القرآن ليس أداءً لاستعراض الرقة، ولا غايةً مستقلة. قد يبكي الإنسان لحظة ثم يعود إلى طبعه. أما هؤلاء: (وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا).

العبرة بما تتركه الدمعة بعد أن تجف: هل تكسر الكبر؟ هل ترد المظلمة؟
هل تجعل اللسان ألين والقلب أبقى؟

الخشوع ليس حزنًا دائمًا في الوجه، بل سقوط استعلاء النفس أمام عظمة الله. وقد يضحك الخاشع ويفرح، لكن قلبه لا يتناول على الحق.

ودرة التعبير أن القرآن قال: (يَزِيدُهُمْ خُشُوعًا)؛ فالإيمان قابل للزيادة، والعلم الحق يفتح للإنسان أبوابًا جديدة من الهيبة. لا يصل المؤمن إلى نقطة يقول عندها: اكتملت، بل كلما عرف اقترب، وكلما اقترب رأى من عظمة الله ما يجعله أشد افتقارًا.

الأسماء أبواب إلى المسمى الواحد

قال الله تعالى: (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا) (الإسراء: ١١٠).

كان بعض المشركين يستغربون ذكر «الرحمن»، فجاء البيان: (ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ). ليست أسماء لآلهة متعددة، بل أسماء حسنى للإله الواحد، تدل على كمالاته.

(أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)؛ كل اسم منها يفتح للقلب بابًا من المعرفة: الرحمن يملؤه رجاءً، والغفور يفتح له التوبة، والحكيم يمنحه الطمأنينة عند غموض الأقدار، والسميع يشعره أن شكواه لا تضيع، والبصير يحرر المظلوم من خوف النسيان، والعزيز يمنعه من الذل لغير الله.

والأسماء كلها **حسنى**؛ بالغة الغاية في الحسن، لا نقص فيها ولا مشابهة بينها وبين صفات المخلوقين. نثبت لله ما أثبتته لنفسه على الوجه اللائق بجلاله، من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل؛ **ليس كمثله شيء**.

ومعرفة الأسماء ليست حفظ قائمة فحسب، بل أن تتحول إلى عبودية. من عرف الله رزاقاً طلب الحلال ولم يذل للخلق، ومن عرفه رقيباً استحيا في الخلوة، ومن عرفه عدلاً لم ييأس من القصاص، ومن عرفه رحيماً لم يغلق باب الرجاء.

ثم تنتقل الآية إلى صوت الصلاة: **(وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا)**. قيل: لا تجهر جهراً يسمعه المشركون فيسبوا القرآن، ولا تخافت بحيث لا يسمع أصحابك؛ واللفظ يرسم منهج التوازن.

لا إفراط ولا تفريط، لا صوت يثير الضرر بلا حكمة، ولا خفوت يميئ أثر العبادة. المؤمن لا يقيس صدق صلاته بارتفاع صوته، ولا يجعل الخفاء فضيلة مطلقة في كل مقام؛ يبتغي السبيل الأنسب الذي يجمع حضور القلب وتحقيق المقصد.

وهذه قاعدة تتجاوز الصوت: في الدعوة، لا تكن صاخباً يحول الحق إلى خصومة دائمة، ولا خافتاً إلى درجة يختفي فيها الحق. وفي الشخصية، لا تفرض نفسك على الجميع، ولا تمحُ وجودك خوفاً من الجميع. ابتغ سبيلاً بين الاستعلاء والانكسار، بين التهور والجبن، بين الصمت المذل والصراخ الذي يضيع المعنى.

إن «السييل بين ذلك» ليس حلاً رمادياً ضعيفاً، بل موضع الحكمة الذي يحتاج بصيرة؛ لأن التطرف أسهل أحياناً من التوازن. يستطيع الإنسان أن يندفع بلا حساب، أو ينسحب تماماً؛ أما أن يظل حاضراً نافعاً، قوياً رحيماً، واضحاً حكيماً، فذلك جهاد طويل.

الخاتمة التي تجمع التوحيد والحمد والكبرياء

قال الله تعالى: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا) (الإسراء: ١١١).

بدأت السورة بقول الله: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ)، وتنتهي بالأمر بالحمد والتكبير. وما بين التسبيح والحمد والتكبير جرت رحلة السورة كلها.

التسبيح تنزيه لله عن النقص.

والحمد إثبات لكماله ونعمه.

والتكبير إعلان أنه أكبر من كل ما يملأ العين والقلب.

وهذه أركان الرؤية الإيمانية: تنزهه فلا تنسب إليه ما لا يليق، وتحمده فتري آثار فضله، وتكبره فلا يعظم في قلبك شيء حتى يزاحمه.

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً)؛ لأنه الغني الكامل الذي لا يحتاج إلى ولد يعينه أو يمتد به وجوده، ولأن اتخاذ الولد من خصائص المخلوق المحتاج. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وهذا ختام يجيب عن الافتراء الذي ورد في أول المقطع الأخير من السورة: (أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا). نفت السورة دعاوى الولد، ثم ختمت بالحمد لله الذي لم يتخذ ولداً.

(وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ)؛ ملكه كامل لا يتقاسمه مع أحد، ولا يحتاج إلى تحالف يحميه، ولا يخشى قوة تنازعه. كل ما عداه مملوك، وكل قدرة في الوجود قطرة من عطائه، تعمل تحت مشيئته.

ومن أيقن أنه لا شريك لله في الملك لم يمنح حاكمًا طاعةً مطلقة، ولا جعل السوق قدرًا لا يُقاوم، ولا ظن أن قوى الأرض تملك المصائر. يتعامل معها بواقعية، لكنه لا يعبد هيبته؛ فالملك لله، وما في أيديهم عارية تنتهي.

(وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ)؛ ليس له ناصر يواليه بسبب ضعف أو مذلة؛ فهو العزيز الغني الذي لا يحتاج إلى من يحميه. أما ما شرعه من موالاتة المؤمنين ونصرة دينه فتكريم لهم، لا سدٌ لحاجة عنده.

الله لا يحتاج إلى دعوتك، لكنك تحتاج إلى شرف الدعوة إليه. لا يحتاج إلى عبادتك، لكن روحك تموت من دون عبادته. لا يحتاج إلى نصرتك، لكنك ترتفع حين تنصر الحق الذي أنزله.

ثم تأتي الكلمة الأخيرة: (وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا).

لم يقل: «وقل الله أكبر» فحسب، بل أطلق التكبير ليشمل اللسان والقلب والحياة. أن تكبره حقًا يعني ألا يكون خوف المخلوق أكبر من أمرك، ولا المال أكبر من أمانتك، ولا الجاه أكبر من ضميرك، ولا الألم أكبر من رجائك، ولا الخسارة أكبر من الآخرة.

كم يقول اللسان «الله أكبر»، ثم تتصرف النفس كأن الجمهور أكبر، والمنصب أكبر، والشهوة أكبر! التكبير الصادق ليس صوتًا يبدأ به الصلاة فقط؛ إنه انقلاب في ترتيب الموجودات داخل القلب.

الله أكبر من الطغيان وإن تمدد.
وأكبر من البحر وإن اضطرب.
وأكبر من خطيئتك إذا تبت.
وأكبر من جرحك إذا لجأت.
وأكبر من المستقبل الذي يخيفك.
وأكبر من الماضي الذي يلاحقك.
وأكبر من كل صنم داخلي أخذ من وعيك أكثر مما يستحق.

(وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا)؛ تكبيرًا يحررك، ويجمعك بعد التشتت، ويرفعك من عبودية الأشياء إلى كرامة العبودية لله.

الخاتمة العامة

مِنْ لَيْلِ الْإِسْرَاءِ إِلَى نُورِ التَّكْبِيرِ

بدأت السورة في الليل: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا...).

وانتهت بنورٍ يملأ القلب: (وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا).

وبين البداية والنهاية بُني الإنسان الذي يستحق أن يُسرى به من ظلمات نفسه إلى آفاق العبودية.

كانت الرحلة الأولى من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، لكن السورة فتحت داخلها رحلات أخرى:

رحلةً من الشرك إلى التوحيد.

ومن العجلة إلى المكث.

ومن الكبر إلى خفض الجناح.

ومن التبذير إلى ميزان الاعتدال.

ومن الشائعة إلى أمانة العلم.

ومن الخوف من الخلق إلى اتخاذ الله وكيلاً.

ومن غواية الشيطان إلى حصن العبودية.

ومن عمى القلب إلى بصيرة القرآن.

ومن ضغط الباطل إلى قيام الليل.

ومن ضيق الإنسان إلى خزائن رحمة الله.

ومن استعلاء فرعون إلى غرقه.

ومن تلاوة الوحي إلى السجود والبكاء والخشوع.

المحور الأول: رحلة العروج الروحي

افتتحت السورة بالعبد؛ لأن الارتفاع يبدأ من العبودية. لم تكن كرامة النبي ﷺ في انفصاله عن بشريته، بل في كمال افتقاره إلى ربه. وفي ليل الألم جاءت الرحلة لتقول لكل مبتلى: قد يكون الليل هو الطريق، لا النهاية.

ثم ربطت السورة بين المسجدين، لتربط بين الرسائل وميراث التوحيد، ولتجعل الأقصى جزءاً من وعي الأمة، لا خبراً بعيداً عنها. لكنها بينت أن الطريق إلى تحرير المقدسات يمر عبر تحرير الإنسان من أصنامهِ الداخلية.

فلا يبلغ معنى الأقصى من يستعبده المال، ولا يحرسه من يهدم العدل، ولا يحمل أمانته من يجعل القوة باباً للعلو.

المحور الثاني: مسار الابتلاء والقيم

في وسط السورة قام دستور نفسي وأخلاقي كامل:

- التوحيد في أصل البناء.
- وبر الوالدين في أصل الوفاء.
- وحقوق الأقارب والمساكين في أصل التكافل.
- والاعتدال في أصل الاقتصاد.
- وحرمة الأولاد والزنا والدماء في أصل المجتمع.
- وحفظ مال اليتيم والعهد والميزان في أصل الأمانة.
- والتثبت في أصل المعرفة.
- والتواضع في أصل القوة.

ثم كشفت السورة العدو الخفي: الشيطان الذي يريد أن يحتكك الإنسان، فيقوده من موضع الرغبة والخوف. لكنه يقف عاجزاً أمام العبودية: (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ).

وهذه هي قاعدة البناء النفسي الإيماني: لا تعالج الأعراض وحدها؛ حرر مركز القيادة في نفسك. فإذا كان القلب لله، أمكن للشهوة أن تنضبط، وللغضب أن يتحول إلى غيرة عادلة، وللطموح أن يصبح رسالة.

المحور الثالث: خاتمة النور واليقين

في الخاتمة عاد القرآن إلى ذاته: وحيًا لو شاء الله لذهب به، ومعجزةً يعجز الإنس والجن عن مثلها، وحقًا نزل بالحق، وشفاءً ورحمةً، وكتابًا فُرق ليبيني الإنسان على مكث.

ثم وقفت السورة أمام طاغية يملك جنود الأرض، ونبي يحمل تسع آيات. ظن فرعون أن إخراج المؤمنين تثبيت لملكه، فإذا الماء الذي جرى تحت سلطان الله يبتلعه، ويسكن المستضعفون الأرض من بعده.

وهكذا يُعيد القرآن تعريف القوة: ليست أن تملك الأرض لحظةً، بل أن تكون في جانب الحق الذي يرث المستقبل. وليست الهزيمة أن تُخرج من موضع، بل أن يخرج الحق من قلبك. وليست النجاة أن تصل إلى البر، بل أن تحمل معك في البر توحيد البحر.

سورة الإسراء وبناء الإنسان المعاصر

إن أزمة الإنسان المعاصر ليست في نقص وسائل الحركة؛ لقد قطع المسافات، واخترق السماء، وغاص في البحر، وبنى عوالم رقمية تتجاوز المكان. لكن سرعته الخارجية لم يصاحبها دائمًا ارتقاء داخلي.

يعرف كيف يصل إلى الطرف الآخر من الأرض، لكنه قد لا يعرف كيف يصل إلى قلب والديه.

يستطيع أن يرسل كلمة إلى الملايين في ثانية، لكنه لا يتعلم دائمًا أن يقول التي هي أحسن.

يجمع معلومات لم تجمعها أجيال، ثم يتبع ما ليس له به علم.

يبني آلات ذكية، لكنه يترك شهوته تقوده من حنكه.

يطالب بحريته، ثم يسلم اختياراته لخوارزمية تعرف نقاط ضعفه.

يتحدث عن كرامة الإنسان، ثم يحوله إلى رقم في السوق، أو هدف في الحرب، أو مادة للاستهلاك.

ويبحث عن الشفاء في كل شيء، بينما بين يديه كتاب يقول الله عنه:
(وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ).

لا تطلب السورة من الإنسان أن يهجر العصر، بل أن يدخل العصر بميزان الوحي. أن يستخدم التقنية دون أن تستخدمه، وأن يمتلك المال دون أن يمتلكه المال، وأن يحمل القوة دون أن يحمل قلب فرعون، وأن يتقدم في الأرض دون أن يمشي فيها مرحًا.

إنها تريد إنساناً يجمع بين السجود والاستخلاف، بين الروح والعمران،
بين قيام الليل والسلطان النصير، بين التوكل والأخذ بالسنن.

الكلمة الأخيرة

حين يُسري الله بقلبك

قد لا تنتقل في ليلة من مسجد إلى مسجد، لكن السورة تدعوك إلى إسرائٍ معنوي يتجدد كل يوم:

أن تخرج من ليل خطيئتك إلى فجر التوبة.
ومن ضيق خوفك إلى سعة التوكل.
ومن قسوة نفسك إلى خفض جناح الرحمة.
ومن عجلتك إلى مكث القرآن.
ومن أسر الناس إلى حرية العبودية.
ومن التعلق بالأسباب إلى معرفة رب الأسباب.
ومن عمى العادة إلى دهشة الآية.
ومن صخب العالم إلى سجدة لا يراك فيها إلا الله.

وحين يشتد ليلك، تذكر أن السورة لم تبدأ بإزالة الليل، بل بدأت بالحركة داخله: (أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا).

فقد لا يرفع الله الظلمة فوراً، لكنه يسري بك فيها.
وقد لا يكشف لك الطريق كله، لكنه لا يتركك وحدك.
وقد يمنعك شيئاً ظننته النجاة، لأن رحمته تعرف ساحلاً لا تراه.
وقد يخرجك من أرضٍ ألفتها، ليدخلك مدخل صدق لم يخطر لك.
وقد يؤخر النصر حتى يبني فيك الإنسان الذي لن يفسده النصر.

فلا تسأل في كل ليل: متى يطلع الفجر؟
اسأل أيضًا: ماذا يصنع الله في قلبي وأنا أسير إليه؟

إن أعظم عطايا الطريق ليست دائمًا أن تصل إلى المكان الذي أردت، بل
أن تصل إلى الله بقلبٍ لم يكن لك قبل الرحلة.

فإذا ضاقت بك الأرض، فصلّ.

وإذا اشتبهت عليك الطرق، فاقراً القرآن على مكث.

وإذا أغراك الباطل بخُلّته، فاطلب من الله الثبات.

وإذا أخافك المستقبل، فاتخذ ربك وكيلاً.

وإذا أعجبتك قوتك، فتذكر أنك محمول في البر والبحر.

وإذا هزك فقد أو بلاء، فلا تجعل مس الشر حكماً على رحمة الله كلها.

وإذا أظلمت النفس، فقل: جاء الحق وزهق الباطل.

وإذا عظمت الأشياء في قلبك حتى كادت تستعبدك، فاختم رحلتك بما ختم

الله به السورة: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي

الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبِّرَهُ تَكْبِيرًا).

تم بحمد الله تدبر سورة الإسراء كاملةً، من الآية الأولى إلى الآية الحادية
عشرة بعد المائة.